الحمامة

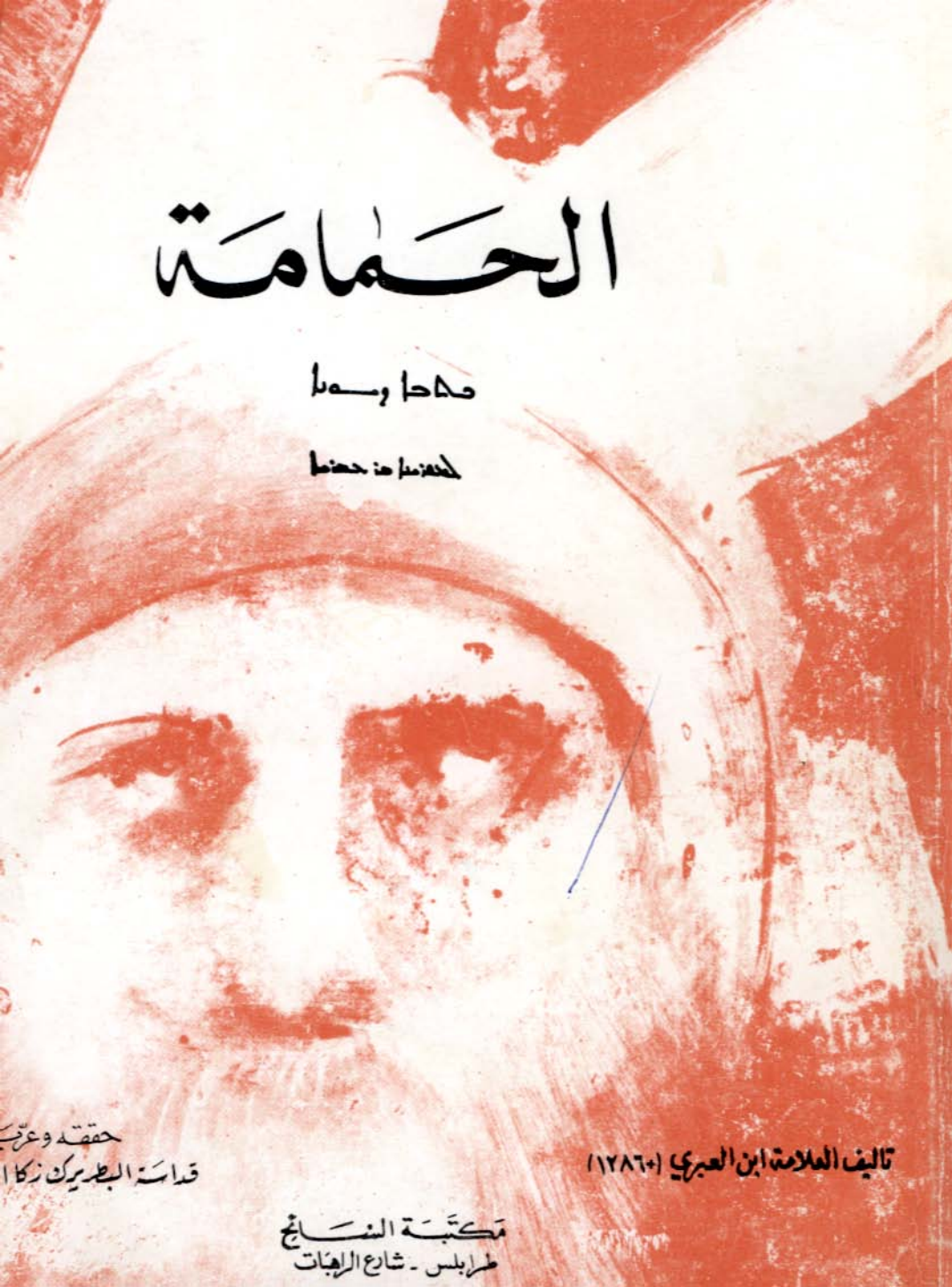

تأليف العلامة ابن العبري (١٢٨٦-١٣٤٠)

حققه وعرّبه
قداسة البطريرك زكا

مكتبة الشمائع
طرابلس - شارع الراهبات

الحمامة

مختصر في تربية الدجاج

صورة الغلاف :

بريشة الأستاذ هاشم سمرجي

مطبوعات مجمع اللغة السريانية
بغداد

الحمامة

مختصر في ترويض النساك

الفه بالسريانية
العلامة مارغريغوريوس يوحنا ابو الفرج الملطي
المعروف بابن العبري مفريان المشرق (+ ١٢٨٦م)

حققه وعرّبه

اغناطيوس زكا الأول عيواص
بطريرك انطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس
عضو المجمع العراقي

المنشورات الجامعة
طرابلس — لبنان

الطبعة الثانية

١٩٨٣

كلمة الناشر

يفرحنا أن نعيد طباعة كتاب «الحمامة» الذي عرَّبه وحقَّقه غبطة البطريرك زكا عيواص يوم كان مطراناً لبغداد والبصرة. ونحن نقوم بهذا العمل تعبيراً عن محبتنا للكنيسة السريانية الأرثوذكسية الشقيقة وقد رأيناها، على حدّ تعبير القديس اغناطيوس الأنطاكي، في شخص أوّل أساقفتها قداسةُ البطريرك.

المحبّة هي الطريق الذي يؤدّي بنا إلى الوحدة الحقيقية ولا سبيل غيرها. وإذا بقي المسيحيون اليوم يتعثّرون في هذا العالم بعد أن أضاعوا وحدتهم فهذا دليل ساطع على ابتعادهم عن طريق المحبة وانهم صاروا على صورة هذا العالم وما عادوا يستحقون «الاسم».

لقد طلب الربّ يسوع في صلاته الوداعية أن يكون تلاميذه واحداً كما هو مع أبيه: «أيها الآب القدوس احفظ باسمك الذين أعطيتهم لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد» (يوحنا ١٧ : ١١ و٢١). ونحن نعرف، كما يعلّمنا المجمع المسكوني الأول، ان الإبن مساوٍ لأبيه في الجوهر. إذاً وحدة الناس، وحدة المؤمنين، لها نموذج. الابنُ يعترفُ بأبيه ويقرّ بأنه مساوٍ له. من هنا تبدأ الطريق الى الوحدة. لا وحدة إلّا بين من يعترف بالآخر ويقرّ بوجوده مساوياً له. لا وحدة إلّا بين متساوين. الساحق أو المتسلّط يسحق الآخر ويمحوه وبالتالي لا وحدة بينهما. الظالم أو الطاغي لا يطلب الوحدة أساساً بل هو سائد ولا يحتاج لآخر. وحده الذي يعتبر الناس أحراراً ومتساوين له يطلب الوحدة معهم.

وما هو فحوى هذه الوحدة؟ واضح من هذا الانجيل انها وحدة العطاء الكلّي. الآب يعطي ذاته للإبن وكذلك الإبن لأبيه «كل شيء لي هو لك وكل شيء لك هو لي» (يوحنا ١٧ : ١١). والابن يعطي ذاته للتلاميذ «الكلام الذي أعطيته لي أعطيته لهم» (يوحنا ١٧ : ٨). وهؤلاء أعطوا ذواتهم للعالم أجمع فماتوا من أجله. إذاً تكون الوحدة بأن يعطي المرء ذاته كلها للآخر وفي تبادل العطاء تتم الوحدة ويصيران كلاهما جسداً واحداً وما يجمعه الله لا يفرّقه إنسان. عندما يفرغ الإنسان ذاته في الآخر ولا يطلب شيئاً لنفسه، يصبح منسكباً في الآخر وينسكب كلٌّ في أخيه وينسكبان معاً في الله فيصبح الله الكل في الكل.

من الله تنبع وحدةُ البشر. فهو الّذي أحبّنا أولاً وأعطى ذاته لنا: وهو الذي أراد أن يوحّدَنا فيه. وكل وحدة خارجة عنه هي وحدة كاذبة على صورة هذا العالم الكاذب. مثلاً قد يظن المرء أحياناً أن الدول العظمى، أو غيرها متحدة وعاملة من أجل السلام. هذا مجرد وهم لأن سلامها قائم على أساس توازن القوى وتوافق المصلحة. وإذا اعتبرنا الزواج عقداً بين طرفين لكلٍّ مصلحته وحقوقه وواجباته وكل يشدّ الحبل صوبه، سقط هذا الزواج وانتهى الى الفشل. كل علاقة تقوم على الخوف والتسلّط لا تقود الى الوحدة بل الى التمرّد والسحق. العلاقة الوحيدة الممكنة والأصيلة بين الناس وبين الدول هي علاقة العطاء والمحبة وفي هذه العلاقة تقوم الوحدة.

فأهِّلنا يا ربّ أن نكون صادقين مع أنفسنا، عاملين بالعطاء والمحبّة، كي نصيرَ واحداً كما أنت مع أبيك.

طرابلس في عيد العنصرة
١٩٨٣/٦/٢٦

الأب ابراهيم سرُّوج

تقديم

إبن العبري هو أكبر عالم في القرن الثالث عشر. تنوّعت همومه الثقافيّة فأوشك أن يغرق، لأن التشتت الثقافي يبلبل النفس. إلا أنه صحا وكفّر — مثل كبار آباء الكنيسة من باسيليوس الى غريغوريوس بالاماس — بحكمة هذه الدنيا، محتمياً بحكمة الآخرة. وبدأ حياته مجادلاً وانتهى الى اليقين بأن اختلافات المسيحية سطحية. وكان أستاذه البعيد القديس اسحق أسقف نينوى النسطوري المذهب أصلاً قد سما فوق الحزازات المذهبيّة السخيفة.

من اسحق الى ابن العبري تأخذ الأمور مجرى جديداً. في أديرة جبل آثوس ببلاد اليونان يحتفلون احتفالاً كبيراً كل عام في ١٦ أيلول بعيدِ القديس اسحق. أشهر رهبان آثوس في أيامنا الناسك بائيسيوس شديد التعلق بالقديس اسحق أولاً. القديسون الشهداء الحارث ورفقته مشتركون بين السريان وبيننا (عيده ٢٤ تشرين الأول).

القديس يوحنا الدمشقي أدرك سطحية الخلاف. في كتابنا «سر التدبير الإلهي»، أبرزنا عمق التلاقي والخطوط الكبرى للاتجاه السليم الحيادي النزيه، فبارك غبطة البطريرك زكا الأول مجهودنا.

وكان غبطته قد نقل من السريانية الى العربية كتاب ابن العبري هذا، وكتب حياته في مجلة المجمع العلمي العراقي، وها نحن نرى الاثنين في كتاب واحد.

الكتاب لؤلؤة في النسكيات تندرج في خط القديس اسحق السرياني. وامتداح ابن العبري لأوغريس لا يغير شيئاً من الواقع. فاسحق طالعَ الترجمات السريانية لكتب أوغريس وميَّع متانة إحكامها الوجيز المكثَّف. المجمع المسكوني الخامس (٥٥٣) طعن في أوغريس المتأثر بأوريجنيس. وقد عالجتُ الأمر مختصراً في «سر التدبير الإلهي» مثبتاً أن أوريجنيته لا تسقط الأقسام الجيدة من مؤلفاته. وما ضاع أصله اليوناني منها ظهر مترجماً الى السريانية. وهناك ترجمات أرمنية.

ولغتنا العربية مفتقرة الى تراث. فتراثها مخطوطات بأعداد هائلة في لهجات عاميّة قديمة غالباً. والتراث الكنسي القديم وقف تقريباً على اليونانية والسريانية واللاتينية. السريانية أخت شقيقة للعربية. وقد ظهرت في ألمانيا قبل ١٠ سنوات طبعة علمية مخصّصة لآثار القديس افرام السرياني. ولفظة سرياني باليونانية تعني «سوري». افرام من نصيبين على مسافة قصيرة من القامشلي. وابن العبري كان مطراناً على حلب.

نحن على أحرّ من جمر النار لمطالعة افرام واسحق في ترجمة عربية جيدة.

فإقدام صاحب الغبطة الجليل البطريرك زكا الأول على إعادة طبع ترجمته لكتاب «الحمامة»، يجعلنا نتشجع أن نطلب الى أريحيّته ونبله وقلبه الكبير المعطاء أن يتزعم فريقاً من المترجمين اللامعين، مستعيناً بنفر من اساطين المستشرقين البارعين المدقّقين.

اسبيرو جبور

ابن العبري

(١٢٢٦ ـ ١٢٨٦م)

بقلم البطريرك زكا عيواص
الرئيس الاعلى لطائفة السريان الارثوذكس في العالم
عضو المجمع العلمي العراقي

مقدمة :

يعد ابن العبري فارس كتبة السريانية الذي لايجارى ، واشهر علمائها على الاطلاق • فاز لنبوغه وعبقريته باعجاب المهتمين بالدراسات السريانية من شرقيين ومستشرقين ، فلقبه بعضهم بدائرة معارف القرن الثالث عشر للميلاد(١) • ولاغرو فقد تبحر في علوم الكتاب المقدس ، واللاهوت ، والمنطق ، والفلسفة ، والطب ، والهيئة ، والفلك ، والتاريخ ، والشرع البيعي ، والبيان والنحو والشعر • ودبجت يراعه في هذه العلوم وغيرها ستة وثلاثين كتابا تعد جميعها في القمة مقاما واهمية • كما اتقن اللغات السريانية التي الف بها اغلب مصنفاته ، والعربية التي وضع بها كتابة (تارخ مختصر الدول) وغيره • واليونانية التي نقل عنها بعض ما كتب وصنف • وقد اجاد النثر في هذه اللغات وكتب الشعر البديع بالسريانية خاصة وتعمق بنحوها جميعا وصرفها وبيانها وبديعها • كما الم بالفارسية والارمنية •

---

(١) مقدمة الترجمة الانكليزية لكتاب (الحمامة) بقلم المستشرق الهولندي ونسنك A. J. Wensinck طبعة ليدن ١٩٠٩ •

فهو حقا فريد زمانه ووحيد دهره ٠

ويمتاز ابن العبري بمزجه الفكر العربي الصوفي بالفكر السرياني النسكي ، ويظهر ذلك واضحا في كتابيه (الايثقون) و(والحمامة) بالمقارنة بكتاب العلامة الشهير أبي حامد الغزالي (١٠٥٨ـ١١١١م) (احياء علوم الدين) ٠ فبين هذه الكتب علاقة ادبية قوية لاسيما في موضوع تنظيم الحياة الادبيـــة والروحية للانسان ، وفلسفة التصوف ٠

مراجـــع ترجمتـــه :

تناول ادباء السريانية وبعض المؤرخين القدامى والمعاصرين ترجمة ابن العبري بالدرس وبذل بعضهم جهدا كبيرا في ذلك يستحقون عليه الثناء العطر ٠ اماالينبوع الرئيس الذي نستنقي منه الحقائق الناصعة في هذا الميدان فهو ما كتبه ابن العبري عن نفسه في تاريخه الكنسي وكتابه (الحمامة) وقصائده السريانية ، وتكملة ترجمته بقلم اخيه (الصفا) ، وسيرته المنظومة بالسريانية بقلم تلميذه المطران جبرائيـــل البرطلي ، وبتناولنا ترجمته بالتفصيل لابد ان نستعرض باختصار احداثا تاريخية كنسية ومدنية ذات علاقة بحياته ٠

ولادتـــه واســـماؤه :

هو مار غريغوريوس يوحنا ، ابو الفرج ، جمال الدين ، المعروف بابن العبري٠

ولد في ملطية(٢) ٠ قاعدة ارمينيا الصغرى سنة ١٢٢٦م من ابوين مسيحيين،

---

(٢) مَلَطية : مدينة على الفرات ، قال ياقوت الحموي في « معجم البلـدان » (٤ [ليبسك ١٨٦٩] ص ٦٣٤) : «مَلَطية : بلدة من بلاد الـــروم مشهورة مذكـورة ، تتاخم الشام ، وهي للمسلمين» ٠ ولملطية اهمية كبيرة لدى السريان حيـــث غدت مصدر اشعاع للعلم والمعرفة بعد الرها ٠ وممن لمـــع فيها البطريرك ميخائيل الكبير (ت ١١٩٩م) المؤرخ الشهير الذي يظن انه كان عم ابن العبري=

وسمي بالمعمودية يوحنا • وكان ابوه تاج الديـن هرون بـن تومـا طبيبـا ماهرا، وشماسا ، ذا مكانة اجتماعية مرموقة في بلدته وكنيسته •

توهم بعضهم بان اهرون ابا ابن العبري كان اصل يهودي وتنصر ومن هنـا جاءت نسبة المترجم بالسريانية ܒܪ ܥܒܪܝܐ (بار عبرويو) وبالغربية (ابـن العبري) وان ابن العبري كان متزوجا ، له ابـن اسمه فرج ، ولذلك لقب بـ (ابي الفرج) (٣) • وقد دحض ابن العبري هذه التهمة ببيت شعر قاله بالسريانية عـن نفسـه وهـو :

ܐܢܐ ܒܪ ܥܒܪܝܐ ܗܘ ܒܪ ܥܒܪܝܐ ܠܐ ܐܬܝ
ܐܠܐ ܡܢ ܥܒܪ ܒܥܒܪ ܥܒܪ ܒܥܒܪ ܥܒܪ ܐܬܝ
ܐܢܐ ܒܪ ܥܒܪ ܒܥܒܪ ܥܒܪ ܒܥܒܪ ܥܒܪ ܐܬܝ
ܐܢܐ ܒܪ ܥܒܪ ܒܥܒܪ ܥܒܪ ܒܥܒܪ ܥܒܪ ܐܬܝ (٤)

= كما ذكر المطران يوسف الدبس (ت ١٩٠٧) في كتابه «تاريـخ سـورية»ـ (٦[بيروت ١٨٩٥] ص ٣٤٨ نقلا عن كتاب الليتورجيات لرينودوسيوس ص ٤٦٩ الذي روى انه وجد في نسخة احد كتب ابن العبري ، في باريس ، انه كان ابن اخي البطريرك ميخائيل الكبير) •

(٣) دحض البطريرك افرام الاول برصوم رأي الذين تجنوا على ابـن العبري بقولهم انه من اصل يهودي ، في مقال نشره بمجلة «الكلية» الصادرة في بيروت سنة ١٩٢٧ ؛ ومجلة الحكمة في القدس في سنتها الثانية عام ١٩٢٧ ؛ وبكتابة «اللؤلؤ المنثور» طبعة بغداد سنة ١٩٧٦ ص ٤١٣ ومنه اقتبس البطريـرك يعقوب الثالث بكتابه«والحقائق الجلية» دمشق ١٩٧٢ ص ٢٥ـ٣٧ •

(٤) ديوانه السرياني ، طبعة الاب يوحنا دولباني (مطران ماردين بعدئذ)ـالقدس ١٩٢٩ ص ٧١ •

وتعريبه : «اذا كان سيدنا (المسيح) سمى نفسه سامريا ، فـــلا تخجلن اذا دعوك ابن العبري ، فان هذه التسمية صادرة عن نهر الفرات لا عن عقيدة معيبة ولا عـــن لغـــة» ٠

من هنا نعلم ان تسميته بابن العبري جاءت لالكونه من اصل يهودي او تكلمه بلغة عبرية ، بل لانه ولد في اثناء عبور نهر الفرات (٥) ٠ او لاصل عائلته مـــن قرية (عبرة) (٦) الواقعة على نهر الفرات بالقرب من ملطية التي جلا اليها جده ٠

اما اسم (هرون) الذي دعي به ابوه ، فقد استعمله المسيحيون والمسلمون معا كما استعملوا اسم موسى مثلا ٠ وهو لايدل على انتمائهم الى الدين اليهودي ابدا٠ فمن المسلمين نذكر الخليفة هرون الرشيد ، ومن المسيحيين نذكر على سبيل المثال لا الحصر البطريرك ديونيسيوس هرون عنجور (ت ١٢٨٠م) والبطريرك يوحنـــا هرون بن المعدني (ت ١٢٦٤م) ٠

اما كنيته (ابو الفرج) فلا تدل على انه كان متزوجا او كان له ابن اســـــمه فرج(٧) ٠ فمن الثابت ان ابن العبري كان متبتلا ، وان امثال هذه الالقاب والاسماء والتكني (بابن فلان وبابي فلان) اقتبسها السريان من العرب الذين يستعملونهـا كثـــيرا ٠

نشـــــأته :

نشأ ابن العبري في بيت رفيع العماد تتضوع في جوانبه رائحة العلم والفضيلة، وشغف باكتساب المعرفة ومحبة الخير ٠ ولقنه ابوه الطبيب مبادىء الطب ، وسلمه

---

(٥) اللؤلؤ المنثور للبطريرك افرام الاول برصوم طبعة بغداد ١٩٧٦ ص ٤١٣ ٠

(٦) المجلة البطريركية ـ دمشق العدد ١٣ السنة الثانية ٠

(٧) كما ادعى المستشرق (برنستين) وفند رأيه هذا علماء الادب السرياني مـن شرقيين ومستشرقين ٠ (انظر الاب لويس شيخو ـ مجلة المشرق البيروتيـة سنة ١٨٩٨ ص ٢٩١ و ٢٩٢) ٠

الى امهر الاساتذة فاتقن على يدهم اللغات الثلاث : السريانية والعربية واليونانية، كتابة وخطابة وهو لما يزل شابا يافعا غض الاهاب • ثم درس الارمنية والفارسية وتعمق بالعلوم الدينية والمدنية المعروفة عصرئذٍ (٨) •

هجرته الى انطاكيـــة :

وفي سنة ١٢٤٣م رحل ابن العبري برفقة ابيه هرون واسرته الى مدينة انطاكية سورية (٩) • على اثر الغارات التي شنتها جيوش هولاكو علـى مدينة ملطية • واخذ ابن العبري عن علماء انطاكية الشيء الكثير من العلوم والمعارف •

ســـــكه :

وفي سنة ١٢٤٤م قصد ديرا بجوار انطاكية حيث تنسك في مغارة بقربه منكبا على اعمال الزهد والتقشف واكتساب العلم الروحي والفضيلة ، فـذاع صيته في الاصقاع وزاره في مغارته البطريرك اغناطيوس الثالث داود (ت ١٢٥٢م) • ونظـم ابن العبري بالسريانية بيت شعر يصف به هذه الزيارة وهو :

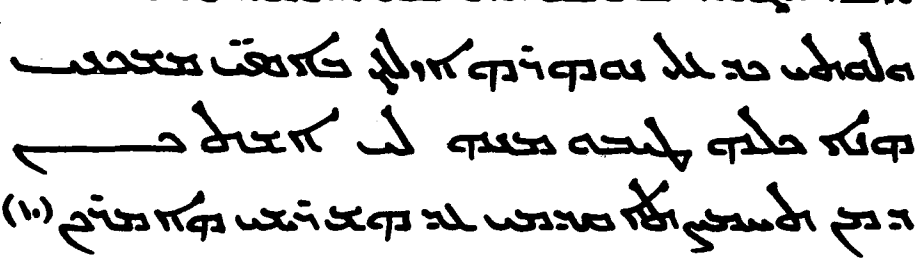

---

(٨) كتابه الحمامة ܚܡܡܐ تحقيق وتعريب كاتب هذه السطور طبعة بغـــداد ١٩٧٤ ص ٢٠٣ •

(٩) كتابه (تاريخ مختصر الدول) بالعربية طبعة بيروت ١٩٥٨ ص ٤٤٦ •

(١٠) ديوانـه السرياني ص ٤٨ •

وتعريبه : زارني البطريرك امس فاضاءت جوانب منسكي متلالئة بوجوده، وغضدني وانا في غمرة اتضاعي لذلك فان راسي لا يزال حتى الان مطاطئاحياء للنعمة الفائقة التـي غمرني بهـا ٠

ولعل ما صادفه ابن العبري من المصاعب والمتاعب ، والكوارث الناجمة عـن غزوات المغول ، زهّده بالدنيا فترفع عن المادة حتى انه لم ياخذ درهما بيده طـوال ايام حياته ، واحب حياة التصوف ، وعـلى الرغم من تبوئه مركزا دينيا رفيعا في الكنيسة ، ظل يتذوق حلاوة الاختلاء باللـه فوصفها في كتابه (الحمامة) (١١) ٠ وصف خبير متمرس ٠

اسـقفيته :

بعد ان قضى ابن العبري سنة كاملة متعبدا في مغارته في انطاكية ، غادر الدير سنة ١٢٤٥م وجاء الى طرابلس الشام حيث اكمل دراسته علـى يعقوب الاسـتاذ النسطوري ، والتقى هنـاك بصليبا بن يعقوب مـن ابناء الكنيسة السريانيـة الارثوذكسية في الرها الذي كان مثله يدرس علوم الطب والبيان والمنطق على يـد الاستاذ يعقوب ٠ وبلغ البطريرك اغناطيوس الثالث داود (ت ١٢٥٢م) خبر تقـدم الطالبين النجيبين بالعلم والمعرفة فاستدعاهما الى انطاكية ورسمهما كاهنين ثـم اسقفين في ١٤ ايلول ١٢٤٦ م وعين صليبا على ابرشية عكا وسماه مار باسيليوس ولكنه لم يدخلها ونقل الى ابرشية حلب ٠ وعين يوحنا ابن العبري على ابرشـية جوباس من اعمال ملطية وسماه مار غريغوريوس ، ولم يكن قد تجاوز العشرين من عمره ٠ قال ابن العبري في ذلك مايأتي : «ولما بلغت العشرين من عمري اضطرني البطريرك المعاصر الى ان اتقلد رئاسة الكهنوت ، حينئذ الجأتني الضرورة الـى ان اجادل ذوي المعتقدات المخالفة من مسيحيين وغرباء ٠ مجادلات مبنية على القياس المنطقي والاعتراضات ٠ وبعد دراستي هذا الموضوع مدة كافية وتاملي فيـه مليا تاكد لدي ان خصام المسيحيين بعضهم مع بعض لايستند الى حقيقة بل الى الفاظ

---

(١١) (الحمامة) ص ٨٩ و ٩٠

واصطلاحات فقط ... لذلك استأصلت البغضة من اعماق قلبي واهملت الجدال العقائدي مع الناس» (١٢) .

ويعترف ابن العبري بضعفه امام الشكوك التي ساورته روحيا واحجم عن ذكر نوعها وتفصيلها لئلا يصير ذلك سبب عثرة للبسطاء ، ولكنه ينوه بجانب منها فيقول : «واجتهدت على ان ادرك فحوى حكمة اليونان اي المنطق والطبيعيات والالهيات والحساب والاداب وعلم الفلك ، وحركات الكواكب ... ولم اجد ضالتي المنشودة في العلوم الخاصة والعامة كافة . فقد اوشكت ان اهلك هلاكا تاما حيث اصطادتني فخاخ هذه العلوم وكانها قد رصدتني وانني امسكت عن ذكر ذلك وايضاحه لئلا يضر بكثير من الضعفاء . والخلاصة انه لو لم يعضد الرب ضعف ايماني في الازمنة الخطرة ولو لم يرشدني الى التامل في كتب العلماء كالاب اوغريس وغيره من المغاربة والمشارقة وينتشلني من هوة الهلاك والدمار . لكنت قد يئست من الحياة الروحية لا الجسدية . فقد درست تلك الكتب غضون سبع سنين » ويتابع قوله بوصف حالته في شكوكه : « وكان ضميري يؤنبني احيانا وهو يخاطبني بقوله : لا تهذ ولا تظن ان كل ما لا تعرفه ليس بموجود لانما تعرفه هو اقل بكثير مما لا تعرفه . وكنت بشكوكي هذه اعرج على الجانبين حتى اشرقت علي كالبرق اشعة نور خاطف لا يوصف فتناثر جزء من القشور التي كانت متلبدة على عيني فانفتحتا . وابصرت قليلا ، وكنت اصلي بلا فتور ليتداعى كليا السياج القائم في الوسط لارى المحبوب غير المنظور لا بالظلام بل علنا »

وحفر في اعلى عصا الرعاية التي يمسك بها الاسقف عادة بيتا من الشعر السرياني يناجي به ربه قائلا :

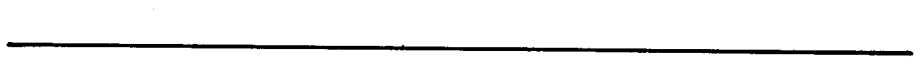

(١٢) فيه ص ٢٠١ ـ ٢٠٧

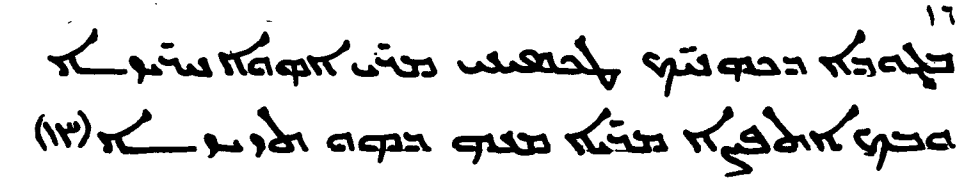

وتعريب ذلك : « اللهم ايها القوي ان حبك جذبني لاقدم لك الذبائح التامة . فلا تهملني لئلا يزدرى بي ، ضمني الى جوقة كهنتك فانتظم في مصفهم وانجو بوساطتك يارب من ابليس المارد » .

وبعد سنة من رسامته اي في سنة ١٢٤٧م نقل ابن العبري الى ابرشية لاقبين من اعمال جوباس فدبرها مدة خمس سنوات .

وفي سنة ١٢٥٢م انتقل البطريرك اغناطيوس الثالث داود الى جوار ربه واختلف آباء الكنيسة في انتخاب من يخلفه في البطريركية فوقع اختيار بعضهم على ديونيسيوس هرون عنجور مطران ملطية . اما الاخرون فعلى المفريان يوحنا هرون ابن المعدني ويذكر التاريخ ان ابن العبري وقف الى جانب ديونيسيوس عنجور ، ولعل ذلك لانه كان مطران ملطية وصديقا للشماس هرون والد ابن العبري . وتظهر لنا اطوار عنجور الغريبة من بيت شعر سرياني نظمه ابن العبري في هجائه قائلا :

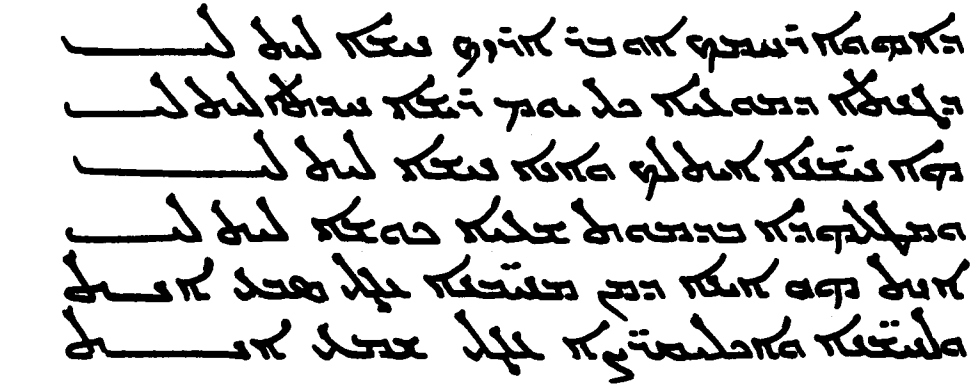

---

(١٣) ديوانه ص ١٢٥

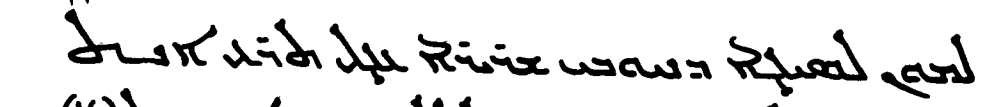

وتعريب ذلك :ـ « لم يخطر ببالي قط ان اتخذك صديقا او نديما لانني لا امتلك جنينة تنبت كل يوم راسا جديدا · فانت ذو اغراض ، اما انا فليس لي غرض ، ولا استقرار لي (معك) وكأني في لعب ، انت يا هذا تمل من الاحباء سريعا ، وتسمع (مصدقا) بسرعة المغرضين والثلابين · لماذا بسهولة تنقض سياج محبتي الصادقة ؟ فانا من لم تعرفه بعد » ·

في سنة ١٢٥٣ م رقى البطريرك ابن المعدني باسيليوس صليبا بن يعقوب وجيه اسقف حلب الى رتبة المفريانية (١٥) وسماه اغناطيوس · وجاء هذا الى الموصل محملا بالهدايا الثمينة ، فقوبل باكرام من بدر الدين لؤلؤ واليها الذي خلع عليه حلة ، واعجب بلباقته وعلمه الواسع ، فقد كان يجيد العربية وصناعة الطب والعلوم الفلسفية ، كما كان رخيم الصوت جميل الصورة · ولكنه كان ضعيفا في العلوم الدينية · وصعد الى دير مار متى ليحتفل بتجليسه على كرسي المفريانية بحسب العادة المتبعة يومذاك فاستقبله الرهبان برئاسة ابي الحسن بن شماع بخشونة بلغت درجة الوقاحة ، الامر الذي امتعض منه المفريان وغادر الدير متفقدا الكنائس فاحبه اغلب الشعب · ولكن لكثرة الشغب والفتن غادر بلاد المشرق بعد سنة ونصف راجعا الى حلب · وكان على كرسيها زميله في الدراسة في طرابلس المطران غريغوريوس يوحنا ابن العبري الذي نقل الى كرسيها سنة ١٢٥٣م بامر ديونيسيوس عنجور على اثر خلوه برسامة صليبا مفريانا · اما المفريان صليبا فاستاجر دأرا خارج الكنيسة واخذ يتعاطى

---

(١٤) فيه ص ٥٤

(١٥ رتبة المفريانية هي الرتبة الثانية بعد البطريركية في الكنيسة السريانية والارثوذكسية وكان لصاحبها السلطة على الاساقفة في منطقة ما بين النهرين الشرقية والعراق وفارس اي كل ما كان يدخل سابقا في المملكة الساسانية ·

الطب • وبعد سنة ذهب الى دمشق ، وبالرشوة استحصل على امر من سلطانها يخوله الاستيلاء على كرسي حلب وابطال ولاية ديونيسيوس عنجور على كنائس سورية • فأثر ابن العبري اعتزال العمل الاداري اجتنابا للخصام وعاد الى ملطية وخلا في دير مار برصوم لدى البطريرك ديونيسيوس عنجور ، وبعد سنة ذهب الى دمشق برفقة سفراء من التتر ونال من الملك الناصر تأييدا لديونيسيوس عنجور فجاء هذا الى حلب وتبوأ كرسيها فغادرها المفريان اغناطيوس صليبا الى طرابلس وبعد مدة مرض مرضا عضالا وانتقل الى جوار ربه يوم الاربعاء ١٢ حزيران سنة ١٢٥٨م(١٦) ورثاه ابن العبري خدينه في الدروس الطبية والفلسفية بقصيدة سريانية عصماء جاء في مطلعها :ـ

ܕܫܡܫ ܡܫܟܚ ܫܡܫܐ ܠܥܠܡ ܟܕ ܐܙܠ ܡܢܟ ܚܒܝܒܝ ܐܡܪ ܠܝ ܡܬܝ ܢܗܘܐ ܙܒܢ ܡܚܘܬܟ ؟ ؟ ܐܥܒܕ ܠܟ ܒܣܟܠܝ ܓܫܪܐ (ܦܪܐܟ) ܐܝܟ ܡܢ ܒܬܪ ܟܘܐ ܘܐܝܒܪܝ ܠܓܫܡܐ ܐܥܕ ܠܟ ܐܦ ܐܢܐ ܠܟ ܐܪܚܐ (١٧)

وتعريب ذلك : « خيم الظلام على العالم بانتقالك منه ياحبيبي يا قمر الاخوان قل لي متى يكون موعد ظهورك ! ؟ لاجعل لك بناظري جسرا (فاراك) كما من وراء النوافذ وكاعضاء للجسد اعد لك وجهي طريقا » •

ولما اغتيل البطريرك عنجور في شهر شباط من سنة ١٢٦١م قال فيه ابن العبري البيت السرياني الاتي :ـ

---

(١٦) التاريخ الكنسي لابن العبري بالسريانية (المفارنة) في ترجمة اغناطيوس صليبا •

(١٧) ديوانه ص ٣١

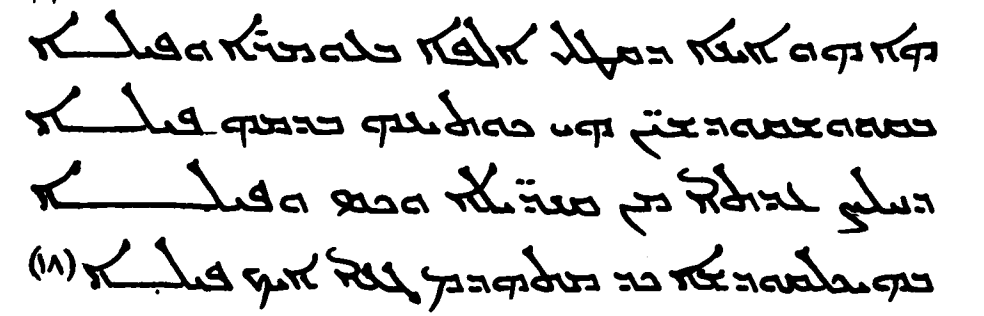

وتعريبه : « هوذا من قتل في الدير الف شخص وفيلا ، لطخ ثوبه في قدس الاقداس بدمه . ان من سلب الكنيسة قناديلها وكؤوسها وصوانيها ، يستغيث كفيل وهو يقطع في قدس الاقداس إربا إربا » .

وبعد موت عنجور اجمعت الاراء على البطريرك يوحنا هرون ابن المعدني ، وقدم له ابن العبري آيات الولاء وواجب الطاعة ، فسر به ابن المعدني كثيرا وفكر في ترقيته الى منصب المفريانية ولكن المنية حالت دون ذلك فقد انتقل ابن المعدني الى جوار ربه سنة ١٢٦٣م ورثاه ابن العبري بقصيدة بليغة جاء في مطلعها : ـ

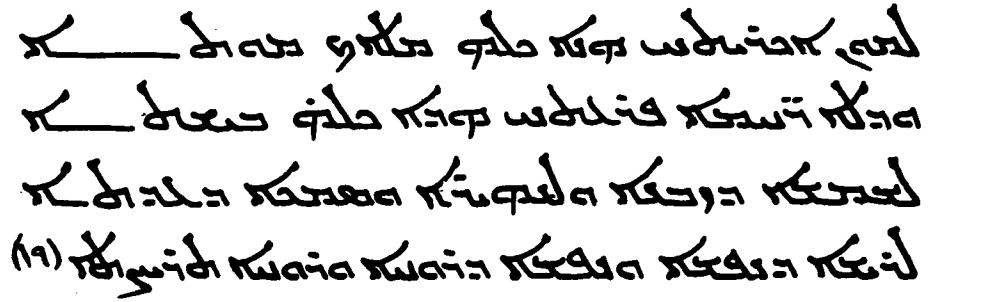

وتعريبه : «لما احزنتني الى درجة كهذه يا ملاك الموت ، وبدون رحمة اصبتني بهذا الشر (فاخذت) شمس الزمان المنير وسند البيعة ورأس النفس ونفس

---

(١٨) فيه ص ٥٥

(١٩) ديوانه ص ٣٣ـ٣٥

الروح والروح المستقيمـــــة ؟ ! » ٠

وقضى ابـن العبري اثنتي عشرة سنة في تدبير ابرشية حلب ، واسس بالقـرب من كنيستها فندقا كمستشفى للمرضى ومـاوى للغرباء ولقى شدائـد كثـيرة ، وظروفا صعبة بسبب الحروب المتتالية والاضطرابات السياسيةابان الغزو المغولي، وكان في كل ذلك الرجل الحازم المملوء حكمة وتواضعا ٠

ففي سنة ١٢٥٨م احتل المغول بقيادة هولاكو مدينة بغداد وانقرضت دولـة العباسيين وسادت الفوضى جميع بلاد العراق وسورية ، وعاث جيش هولاكـــو فسادا ٠ وعند وصولهم الى حلب خرج ابـن العبري للقاء هولاكو يستعطفه عـــلى رعيته من ظلم المغول ، وانشد امامه بالسريانية بيت شعر نقله عن الفارسية وهو :

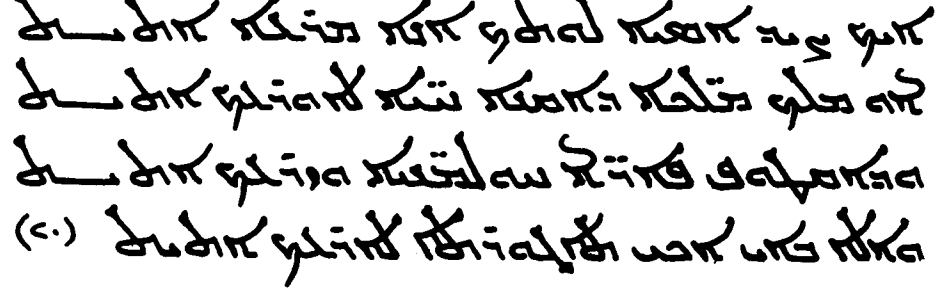

وتعريبه : « يا ملك الملوك ، لقد قصدتك كما يقصد المريض الطبيب ، وخرجت للقائك لانال حياة واجتني ثمار زرعك التي تشفي العليل ، والا فلاي تجارة اخرى و طئت ارضـــــك ؟ » ٠

ولم تجد شفاعة ابـن العبري بشعبه نفعا فقد سبق السيف العذل ، وقتـل المغول العديد من السريان والروم وغيرهم في حلبو كان عدد الذين قتلوا في حلب لا يقل عمن قتـــل في بغداد (٢١) ٠

---

(٢٠) ديوانه ص١٦٥ ٠

(٢١) تاريـــخ الدول بالسريانيـــة

مجاريها اذ زاره المفريان في دير مار برصوم ٠

وفاة البطريرك يشوع وتنصيب البطريرك فيلكسين

ولما شعر البطريرك اغناطيوس الرابع يشوع بدنو اجله ارسل يستدعي ابن العبري ليسلمه ادارة البطريركية ، فلم يتمكن هذا من السفر لاضطراب حبل الامن في تلك الفترة بسبب الحروب المتواصلة ٠ وتوفي البطريرك سنة ١٢٨٢ م في دير فقسيماط من اعمال قيلقية ٠ واجتمع بعض الاساقفة في دير مار برصوم وخلافا لقوانين الكنيسة رسموا فيلكسين نمرود بطريركا دون علم المفريان ابن العبري وذلك في اوائل سنة ١٢٨٣ م واستحصلوا له براءة من ملك المغول ، فامتعض ابن العبري من هذا العمل المشين الذي جاء ضد ما سنته المجامع الكنيسية ٠

وحاول البطريرك الجديد واساقفته ترضية المفريان ابن العبري معتذرين اليه عما جرى ، وارسلوا اليه وفدا الى تبريز حيث كان يومئذ فلم يستقبله ٠ ثم قصده الاستاذ شمعون الطبيب وهو عم البطريرك الجديد برفقة بعض الاساقفة مستعطفين، فرفض طلبهم ايضا قائلا : « ان الآباء القديسين حددوا منذ زمن بعيد الا يقام مفريان بدون البطريرك ولا يقام بطريرك بدون المفريان ، وحيث ان هؤلاء الاساقفة قد تعدوا الشريعة وقوانين الآباء فليس لي معهم نصيب ولا اشاركهم في مخالفتهم الشريعة » ثم جاءه تاج الدولة ابن الاستاذ شمعون الذي كان تلميذه وطلب اليه متضرعا فاستقبله ابن العبري ولم يرد طلبه ٠ وكتب الى البطريرك فياكمسين نمرود رسالة شرح فيها اسباب عدم مصادقته على رسامته البطريركية، موضحا استياءه من استئثار بعض الاساقفة بامر الانتخاب والرسامة ضاربين بالقوانين الكنسية عرض الحائط وان امتعاضه منهم ليس بسبب طموحه الى درجة البطريركية كما يظن بعضهم ، فهو لم يكن يوما ما يرغب في البطريركية ٠ ومما قاله : ربما ظننت ان لي رغبة في البطريركية فلم اصادق على انتخابك ورسامتك بطريركا ٠ ان الله فاحص القلوب يعلم انه ولا عضو من اعضائي يتوق الى هذه الدرجة ، لاسباب شتى ، منها اولا : انني قد

اؤتمنت على رئاسة الكهنوت منذ اربعين سنة تقريبا ، قضيت عشرين سنة منها في الغرب ، وعشرين في الشرق ، وقد سئمت الاعمال الادارية ولذلك اطمح الان الى العزلة واتوق الى الراحة والحياة الهادئة استعدادا للحصول على النهاية الصالحة المحفوظة لآل السلام • ثانيا : انا بنعمة الله اتنعم براحة تامة برعاية الكنيسة في الشرق ، فلا داعي لاستبدالها باخرى كما فعل اسلافي المرحومون • وان ما حصلت عليه من الراحة في الشرق لم يحصل عليه غيري على الرغم من اضطراب الزمان ثالثا : ولو افترضنا انه كانت لي رغبة في البطريركية كسائر البشر الذين يطمحون الى درجة اعلى ، غير ان الخراب الذي عم ابرشيات المغرب منذ امد بعيد كفيل بازالة هذه الرغبة • فهل ارغب في انطاكية التي يبكى عليها ويناح ؟ ام في ابرشية گومايا الكهنوتية التي لم يبق فيها بائل على حائط ، او دبرؤة او منبج او قلونيقوس او الرها او حران التي اقفرت جميعها ؟ او الابرشيات السبع(٢٦) المحيطة بملطية التي لم يبق فيها بيت واحد ؟ ! • من هنا يعرف ان سبب حزني هو عملكم غير الممدوح بل الذميم اذ بدون رضى الغربيين والشرقيين عملتم ما عملتم • يرجى علمكم ، وربكم الذي لا يحابي الوجوه يعلم كل شيء(٢٧) •

وفي سنة ١٢٨٦ بلغ المفريان ابن العبري الستين من عمره ، وروى اخوه برصوم الصفا ان ابن العبري كان يتوقع حلول اجله في تلك السنة وكان يردد القول انني بحسب علم الفلك ولدت في السنة التي بها اجتمع زحل والمشتري في برج الدلو ، ورسمت مطرانا بعد عشرين سنة وهي السنة التي اجتمع بها زحل والمشتري في برج الميزان • ونصبت مفريانا بعد عشرين سنة من ذلك التاريخ وهي السنة التي اجتمع بها زحل والمشتري في برج الجوزة • واتوقع انتقالي من هذا العالم في سنة ١٢٨٦ م وهي السنة التي يجتمع فيها زحل والمشتري في برج الدلو كما اجتمعا في سنة ميلادي • والى هذا اشار ببيت شعر نظمه بالسريانية وهو :

---

(٢٦) وهي لاقبين ، وعرقا وقليسورا ، وجوباس وصمحا ، وقلوديا ، وجرجر •
(٢٧) سيرته بقلمه في كتاب التاريخ الكنسي (المفارنة)

مفريانيتـــــه

ولما تبوأ الكرسي البطريركي اغناطيوس الرابع يشوع (ت ١٢٨٣ م) خلفا لابـن المعدني سنة ١٢٦٤م اجمع اساقفة المجمع الانطاكي على انتخاب ابن العبري مفريانا على المشرق بعـــد خلو هذا الكرسي مدة ست سـنوات عـلى اثر وفـاة المفريان اغناطيوس صليبا (ت ١٢٥٨ م) ٠

وجرت حفلة رسامة ابـن العبري مفريانا على المشرق في ١٩ كانو الثـاني سنة ١٢٦٤م في سيس قاعدة قيلقية وحضرها هيوم ملك قيلقية واولاده واعيـان دولته واساقفة من الارمن الى جانب اساقفة السريان وجمهور غفير من الشعب ٠ والقى فيهـا ابن العبري خطابا بليغا بموضوع رئاسة الكهنوت ، استهلـه بآيـة المرتل : « انت يارب انشأتني ووضعت علي يدك » (٢٢) ٠

وقام ابـن العبري على اثـر رسامته بزيارة هولاكـو فاستقبلـه بحفـاوة لائقة لمكانته العلمية والدينيـة ٠واهتم ابـن العبري لتثبت رئاسـة البطـريرك اغناطيوس الرابع يسوع (ت١٢٨٣م) الروحية ومهد لزيارته لهولاكو فلما وصل البطريرك رحب بـه هولاكو اجمل الترحيب ومنحه براءة تثبت حقوقه ، كمـا اثنى ببراءة اخرى على المفريان ابـن العبري وخلـع عليهما ، ومنح براءة ثالثـة لاسقف قيسارية قبادوقية السرياني وفي السنة التالية توفي هولاكو وخلفه بالملك ابنه اباقا الذي نسج على منوال ابيه في اكرام البطريرك والمفريان ٠

وبعد مقابلة هولاكو بمدة وجيزة توجه ابـن العبري الى العـراق ليتولـى كرسي المفريانية فرحب به رجال الدولة وابناء الكنيسة في الموصل وقوبل باحترام لائق في دير مار متى ٠ وزار بغداد فكرمه مكيخا جاثليق النساطرة ،وكان زمـن الفصح قد حل فكان السريان والنساطرة يحتشدون في كنيسة مار توما السريانية في محلة المحول (٢٣) لسماع الطقوس الدينية التي كانت تتلى برئـاسة المفريان

---

(٢٢) مزامـــير داود (١٣٨ :٥)

(٢٣) وتدعى ايضا قطيعة الدقيق وهي في جانب الكرخ ٠

ومن جملتها طقس تقديس الميرون . وامضى ابن العبري الصيف كله في بغداد ورسم مطرانين احدهما لبغداد والاخر لاذربيجان وغادرها في الخريف ، ولما زارها ثانية سنة ١٢٧٧م قال فيه دنخا جاثليق النساطرة « طوبى لشعب اصاب مثل هذا »(٢٤) .

ونهض ابن العبري لتدبير ابرشيات المشرق العديدة الواسعة مدة اثنتين وعشرين سنة ، ورسم لها اثني‌عشر اسقفا اتصفوا بالتقوى والعلم الغزير ورمم وجدد كنائس واديرة في نينوى وبغداد واربيل وتبريز ومراغة . وكان مولعا بحسن هندسة الكنائس وزخرفتها حتى انه طلب مرة من هوسبينا خاتون ابنة ملك المغول فارسلت اليه احد المصورين اللذين كانت قد استقدمتهما من القسطنطينية من لدن ابيها الملك لزخرفة كنيسة اليونان في تبريز ، فعهد اليه ابن العبري زخرفة كنيسة ما يوحنا ابن‌النجارين التي شيدها جنوب غربي برطلة ونقل اليها ذخيرة الشهيد ابن النجارين (٢٥) .

الخلاف بين البطريرك وابن العبري

دون ابن العبري في تاريخه ما عاناه من اوصاب في عمله الرسولي وما جرى بينه وبين البطريرك اغناطيوس الرابع يشوع من خلاف ، ذلك ان البطريرك لم يعر اذنا صاغية الى اراء ابن العبري الصائبة التي تتوخى خير الكنيسة وازدهارها وحفظ كرامتها . وتفاقم الخلاف بينهما ، وكاد يؤدي الى شقاق .

وسنة اصيب ابن العبري بمرض الدوسنطاريا وكان يومئذ في سيس بقيلقية ، وصار قاب قوسين او ادنى من الموت ، ولكن العناية الالهية شفته ، فارسل اليه البطريرك رسالة يهنئه بالشفاء فعادت بينهما المياه الى

---

(٢٤) المشرق ١[بيروت ١٨٩٨] ص ٤١٥

(٢٥) التاريخ الكنسي(المفارنة) لابن العبري ـ ترجمة حياته بقلمه

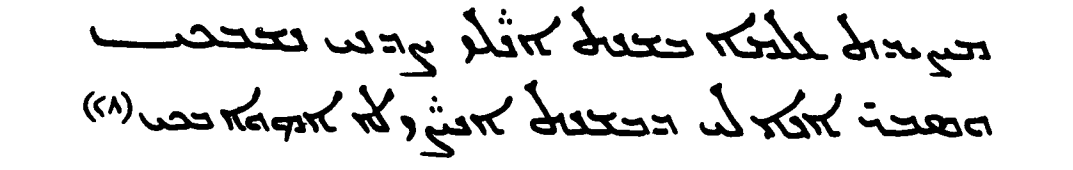

وتعريبه : ايا صنارة العالم لقد اصطادني شركك في سنة ١٥٣٧ يونانية (. = ١٢٢٦م) واظن انني ساغادرك في سنة ١٥٩٧ ي (= ١٢٨٦م) ٠

ويروي لنا برصوم الصفا ان اخاه ابن العبري كان يتوجس شرا من سنة ١٢٨٦م ، فلما حلت كان يؤكد بان لا مناص من الموت خلالها ٠ وكانت الموصل مقره تتعرض ايام الصيف لهجمات اللصوص الذين يأتونها من سورية ٠ وفي تلك السنة كثرت في الموصل حوادث العنف من سلب ونهب وسبي وقتل٠ فخاف برصوم الصفا على اخيه ابن العبري لئلا يطرأ عليه ما يعرض حياته للخطر فتتم تكهناته ٠ لذلك الح عليه بالانتقال الى مراغة في اذربيجان ففعل ٠ وقوبل بالترحاب من اهل مراغة على مختلف مذاهبهم ٠ وطلب اليه علماء المسلمين تعريب كتابه السرياني في التاريخ العام ، فلبى طلبهم واتم نقله الى العربية ملخلا ثلاث صفحات في نحو شهر بلغة عربية بليغة ، واسماه (تاريخ مختصر الدول) ٠

انتقاله الى جوار ربه

وانتابته الحمى الشديدة ليلة السبت ٢٨ تموز سنة ١٢٨٦ م وفي اليوم التالي وصف له الاطباء دواء رفض تناوله قائلا : لا فائدة من ذلك لان الاوان آن للانتقال من هذا العالم ٠ ولازمته الحمى ثلاثة ايام ٠ وطلب قلما وورقة ليكتب وصيته ، فلم يقو على الكتابة ٠ وكان يحبس يده اليسرى بيده اليمنى ويَقول « لقد هد حيلي وخارت قواي ، ظلمتني يا اخي فلم تتركني أموت بين جمع الاساقفة والرهبان والكهنة والشمامسة الذين خدمتهم كرئيس عليهم مدة

---

(٢٨) ديوانه ص٧٣

اثنتين وعشرين سنة ، ليحتفلوا بتشييع جثماني · لقد هربتني يا أخي من الموت فلم يجد تهريبك اياي شيئا · فتقو اذن وتشجع ، ولا تبك ولا تكتئب بافراط كان هذا الامر جديد في العالم » ·· وكان يتلفظ بمثل هذا الكلام طوال ذلك النهار وهو مبتسم الثغر مبتهج غير خائف من الموت · ثم نادى كاتبه الشماس سعيد الطبيب ، وطلب اليه ان يكتب ما يمليه عليه وابتدأ كلامه بالسريانية بقول اشعيا النبي

ܚܙܘ ܡܐ ܕܚܙܝܬ ܡܚܙܝܐ ܕܡܐ ܕܚܙܐ
ܡܠܟܐ ܥܡ ܟܠ (٢٩) .

« الأنسان كالعشب ايامه ، وكزهر الحقل هكذا ينمو » · ثم اعلن صورة ايمانه وهيأ بذلك كراسا للكرسي البطريركي ، واخر لكرسي المفريانية لتدبير قلايته ، وسلمهما بيد اخيه · كما اوصى تلاميذه على الثبات بالمحبة بعضهم مع بعض ، وعدم التفرق قائلا : ما دمتم ثابتين بالمحبة فأنا اكون بينكم ، ولما سمعوا وصيته مزقوا ثيابهم وعفروا وجوههم بالتراب ، واجهشوا بالبكاء · اما هو فاستمر يتحدث اليهم وهو يبتسم حتى ساعة متاخرة من الليل اذ انطفأ نور المصباح الوهاج وسقط عمود الكنيسة السريانية الارثوذكسية الثابت المتين · وهكذا انتقل الى جوار ربه ليلة الثلاثاء المصادفة ٣٠ تموز من السنة ١٢٨٦ م · وكان في مراغة يومذاك يهبالاها جاثليق النساطرة المكرم الذي لما بلغه نعي ابن العبري حزن حزنا شديدا وامر بالا يخرج احد الى عمله ذلك النهار وان تغلق الاسواق وان يلبس الناس ثياب الحداد ، وتقرع اجراس الكنائس حزنا ، وارسل مطرانين يمثلانه في مراسيم الجناز · كما ارسل شموعا كبيرة لهذه المناسبة· وبعد ان اجتمع ما يقارب مئتين من جميع الملل بما فيهم الارمن واليونان ، وكان للسريان في مراغة اربعة كهنة فقط ، نهضوا للصلاة من الصباح وحتى العصر، ثم واروا جسده التراب تحت مذبح الكنيسة · ونقل جثمانه الطاهر بعدئذ الى دير مار متى بجوار الموصل بهمة اخيه برصوم الصفا ·

---

(٢٩) تضمين العدد ٦ من الاصحاح ٤٠ من سفر نبوة اشعيا

مؤلفـــاتـــــه

وضـــع ابـن العبري بالسريانية والعربية ستة وثلاثين كتابا يعد بعضهـا من امهـــات المراجع ، تناول فيها شتى العلوم المعروفة في عصره وهي :

اولا : المؤلفـــات الدينية

١ ـ تفسير الكتاب المقدس : يعـــد كتابه [illegible] كنز الاسرار موسوعة كتابية تفسيرية مهمة في الكنيسة السريانية الارثوذكسية • تناول فيـــه تفسير اسفار الكتاب المقدس بعهديه العتيق والجديد ما عدا سفر الرؤيا • وذلك بحسب الترجمة السريانية المسماة بالبسيطة [illegible] فشيطا) مقارنا اياهـــا بالترجمة السبعينية وبغيرها من النصوص والترجمات ، منوها بفضل السبعينية على البسيطة(٣٠) ، ونهجـــه بالتفسير لغـــوي ولفظي ورمزي، ومصادره كتابات الاباء السريـــان افرام والسروجي فيلكسينوس وســـويريـوس وموسى بـن كيفا ودينيسيوس ابـن الصليبي ودانيال الصلحي ويعقوب الرهاوي وجرجس اسقف العرب ويشوعداد المرزوي النسطوري وبعض الاباء اليونان •

اهم مخطوطاته ، نسخة خزانة فلورنسة ، انجزت عام ١٢٧٥م أو ١٢٧٨ م في حياة المؤلف (٣١) وبرلـــين عام ١٢٩٨م واكسفرد سنة ١٤٩٨م وبرمنكهام ـ منغانـــة ـ في القرن الخامس عشر على ما يظـن والخزانة البطريركية السريانية الارثوذكسية في دمشق سنة ١٥٦٧ م ودير الزعفران ١٥٦٩ •

وقد نشرت اجزاء منه بالطبع ونقلت الـــى لغات اوربيـــة ، من ذلـك مـــا نشره المستشرقان مارتين سبرنكنلن ووليم كريهام في شيكاغو عام ١٩٣١ مترجمين الى الانكليزيـــة من سفـــر التكويـــن حتى سفر صموئيل الثاني ومصورين النصـــ السرياني في طبعة انيقة وقعت بـ ٣٩٣ صفحـــة من الحجم الكبير •

---

(٣٠) اللؤلؤ المنثور ص ٤١٤

(٣١) فيـــه ص ٤١٥

٢ ـ اللاهـــوت النظري :

١ ـ كتاب ܡܢܪܬܐ ܩܕܫܐ اي منارة الاقداس وهو موسوعة لاهوتية ضخمة ، ويعـــد اهم كتاب وضع في هـــذا الميدان في الكنيســـة الســـريانيـة الارثوذكسية ، قسمه الى اثني عشر ركنا او بابا وتناول فيه الموضوعات اللاهوتية النظرية وهي العلم ، ووجود الله ، وخلق العالم ، والتثليث والتوحيد وسر التجسد، والملائكة والشياطين ، والنفس البشرية ، ورئاسة الكهنوت ، والحرية وقيـــامة الاموات والدينونة العامة والفردوس وغيرها ٠

مخطوطات هـــذا الكتاب كثيرة اهمها في مكتبات فلورنسة انجزت ســـنة ١٣٨٨م والفاتيكان في القرن الرابع عشر وبرلين سنة ١٤٠٣ م وكمبرج في القـرن الخامس عشر والقدس سنة ١٥٩٠ م ودير الزعفران وهي سريانية وكرشونية(٣٢) سنة ١٦٧٤م والشرفة في القرن السابـــع عشر ٠

نقل المستشرق جان باكوس سنة ١٩٣٠م الركنين الاولين منه الى الفرنسية ونشر ذلك مع النص السريانـــي ٠

وكان الشماس سرجيس ابـن الاسقف يوحنا بـن غرير الدمشقي قد نقلـه الى العربية سنة ١٦٦١ م ونسخه كثيرة منها مخطوطتا الشرفة سنة ١٦٩١م و١٧٦١م ومخطوطتي سنة ١٨٥٨ م ٠

٢ ـ كتاب (ܫܘܪܪܐ) اي الاشعة وهو ملخص كتاب منارة الاقداس قسمه على عشرة ابواب وتناول فيه اهم المواضيع اللاهوتية باختصار ٠

من مخطوطاته المهمة ، الفاتيكانية انجزت عام ١٣٣٠م وباريس عام ١٣٥٣ م ولندن عام ١٣٦٤م والزعفرانية عام ١٥٠٩ م ٠

نقل الى العربية ومن نسخـــة مخطوطة ديـر الشرفة انجـــزت في اواسط

---

(٣٢) اي ان اللغة عربية مكتوبة بحروف سريانية

القـرن الثامـن عشر ٠

٣ ـ ولابن العبري في اللاهوت ايضا رسالة سريانية تدعى « دستور الايمان» تحتوي على صورة الايمان الارثوذكسي ٠ ورسالة منظومة جوابا لماردنخا الجاثليق النسطوري يعرض فيها بالبراهين العقلية والنقلية صحةالعقيدة الارثوذكسية(٣٣) ومـــع ان ابـن العبري ادرك اللغة السريانية وهي في اوج عزها وجعل منها آلـــة طبعة لابحاثه العلمية ولا سيما اللاهوتية فقد استعمل الكلمات اليونانية الى جانب السريانية في ابحاثه اللاهوتية للتدقيق بالتعبير والتحديدات اللاهوتية ٠

٣ ـ الشرع الكنسي والمـــدني

لابـن العبري في الشرع الكنسي والمدني كتاب اسماه ܗܕܝܬܐ اي الهدايات ، كتبه بالسريانية وطواه على اربعين بابا و ١٤٧ فصلا في القوانين الدينية الكنيسة وما يتعلق بالكنيسة واتباعها من الرسوم والنظم المدنية ٠ ومصـــادره فيـه ، الكتاب المقدس والقوانين الرسولية والمجامع المقدسة الاقليمية والمسكونية وبعض قوانين وضعها بطاركة انطاكية والاسكندرية واباء الكنيسة ومراسيـــم ملوك الروم وفتاوى خاصة ٠ واضحى هذا الكتاب الجامـــع الشامـــل دستورا للكنيسة السريانية الارثوذكسية (٣٤) ٠

اقـــدم مخطوطاته نسخة نفيسة جـــدا انجزت سنة ١٢٩٠ م وهي الان في خزانة الخوري متى كوناط في بلدة باميا كودا ـ كيرلا ـ الهند (٣٥) ونسخة فـــي مكتبة مديشيس (٣٦) بروما خطت سنة ١٣٥٧م ومخطوطة خزانة دير مار مرقس بالقدس انجزت سنة ١٣٩١م ونسخة دير مار اوكـــين سنة ١٣٥٤م ومطرانيـة

---

(٣٣) الاب لويس شيخو ، المشرق البيروتية ١ (١٨٩٨) ص٤١٥ و ٤٥١
(٣٤) اللؤلؤ المنثـــور ص ٤٢٢
(٣٥) لسان المشرق الموصلية ١ (١٩٤٩) ع ١٠ ص ٤٧ـ٤٨
(٣٦) تاريـــخ سورية للدبس مج ٦ ص٣٥٢

السريان الارثوذكس في الموصل عام ١٤٨٣م وباريس سنة ١٤٨٨م واكسفرد سنة ١٤٩٨م والشرفة في القرن الخامس عشر ٠

نقل الى العربية في اواخر القرن السادس عشر ونسخه عديدة ومنتشرة منها نسخة الشرفة الكرشونية التي جاء فيها ما يأتي : نقلها الى العربية الخوري يوحنا بن المعلم عبود بن الجرير الزربابي في كنيسة مار بهنام بدمشق ، كتبه الشماس يوحنا بن جبرائيل خادم الكنيسة المذكورة ٠ وكان الفراغ من الكتابة في الثامن من شباط يوم عيد مار سيويريوس سنة ١٩٦٤ي = ١٦٣٥ م ٠

نشره الاب بولس بيجان سنة ١٨٩٥م معتمدا على نسخة باريس المخطوطة عام ١٤٨٨ م وكان قبله السمعاني قد نقله الى اللاتينية نقلا وقع فيه تحريف وتشويه (٣٧) ٠

٤ ـ اللاهوت الادبي

أ ـ كتاب [illegible] الايثيقون وضعه ابن العبري بلغة سريانية بليغة وهو في علم الاخلاق لحسن السلوك في الدين والدنيا ٠ اي تنظيم الحياة الادبية والروحية للانسان ٠ وقد اكثر فيه من اخبار النساك ، وسرد حكما لهم ٠ وهو مثل كتاب «احياء علوم الدين» للغزالي ٠ فالكتابان يبحثان في حياة الانسان التي هي ليست صلاة وصيام ومحبة وصدقة وحسب بل هي ايضا تجارة وزواج وغذاء الجسد وتعليم الاطفال والخ ٠٠٠

يقسم كتاب الايثيقون الى اربع مقالات كبرى ، تحوي كل منها ابوابا وفصولا شتى ٠ المقالة الاولى في ترويض الجسد وتنظيم حركات تمرينه ، المقالة الثانية تقويم الجسد وترتيب اعماله المقالة الثالثة تنقية النفس من الميول الشاذة والمقالة الرابعة تجميل النفس بانواع الفضائل ٠ تحتوي المقالة الاولى والثانية على ٢٠٤ فصول والمقالة الثالثة والرابعة على ٢٣٧ فصلا ٠

---

(٣٧) اللؤلؤ المنثور ص ٤٢٣

انجز ابن العبري كتابه هذا في مراغة في ١٥ تموز سنة ١٢٧٩م اي قبل وفاته بسبع سنوات ٠

اهم النسخ واقدمها هي مخطوطة خزانة البطريركية الكلدانية في بغداد ، انجزت سنة ١٢٩٢م اي بعد وفاته بست سنوات ٠ ومخطوطتي اكسفرد انجزتا سنة ١٣٢٣م و ١٣٣٢م وثلاث مخطوطات في المتحف البريطاني خطت الاولى سنة ١٣٣٥م في اورشليم ، اما الثانية فكتبت سنة ١٤٠٩م وكانت قبلا ضمن مخطوطات دير السريان في مصر ٠ وفي دار البطريركية السريانية الارثوذكسية في دمشق مخطوطة جيدة انجزت سنة ١٥٧٦م ٠

عربه الراهب داود الحمصي ومنه نسخة في اكسفرد (٣٨)٠ وفي دير الشرفة مخطوطة عربية بعنوان (كتاب الاداب وذوي الفهم والالباب الذي هو كتاب الايشيقون) (٣٩) انجزت سنة ١٦٩٩م يقول فيها الاب شيخو لعل ابن الحطاب نقلها الى العربية في ايام ابن العبري ، فان في مكتبة الفاتيكان نسخة معربة بقلم ابن الحطاب ، كما ان في الفاتيكان نسخة اخرى نقلها الى العربية القس يوحنا ابن جرير انجزت سنة ١٦٤٥(٤٠) ٠

اما افضل تعريب له فهو بقلم المرحوم الملفان مار غريغوريوس بولس بهنام مطران بغداد والبصرة سابقا على السريان الارثوذكس وقد نشره سنة ١٩٦٦م في مطبعة الشباب في القامشلي ـ سورية ٠
ونشر الاب بيجان النص السرياني سنة ١٨٩٨م ٠

بـ كتاب ܡܓܕܐ اي الحمامة ٠ وهو مختصر في ترويض النساك ومختص بالرهبان الذين ليس لديهم مرشد روحاني ، الفه بعد كتابة (الايشيقون)

---

(٣٨) فيه ص ٤٢٣
(٣٩) الطرفة في مخطوطات دير الشرفة ـ للخوري اسحق ارملة ـ مطبعة جونية ١٩٣٦ ص ٤٠٩ ٠
(٤٠) مجلة «المشرق» البيروتية ١ (١٨٩٨) ص ٤٥٢

بانشاء سرياني جزل ، واسماه (الحمامة) رمزا الى الروح القدس الذي هبط على هامة السيد المسيح اثناء العماد بشبه حمامة • وقد قسمه الى اربعة ابواب ، الباب الاول تعليم الفعل الجسدي الذي يتم في دار المبتدئين ، الباب الثاني ، كيفية ممارسة السيرة الروحية في الصومعة ، الباب الثالث ، شرح الاستقرار الروحي للحمامة المعزية ، الباب الرابع قصة تدرج المؤلف بالعلوم ، ثم اقوال الهامية ، وعدد هذه الاقوال مئة وقد اعطت كتاب الحمامة اهمية فاقت اهمية (الايثيقون) ووضعت ابن العبري في الرعيل الاول بين النساك(٤١) •

ولكتاب الحمامة مخطوطات قديمة ، اقدمها مخطوطة المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو • انجزت سنة ١٢٩٠م اي بعد انتقال ابن العبري الى جوار ربه باربع سنوات فقط • وقد حققناها على مخطوطة جامعة اكسفرد التي انجزت سنة ١٤٩٩م وغيرها من المخطوطات وعربناها ونشرنا النص والترجمة سنة ١٩٧٤م ضمن مطبوعات مجمع اللغة السريانية في بغداد مع مقدمة مستفيضة في النسك السرياني المسيحي وعلاقته بالتصوف العربي الاسلامي لخصناها عن مقدمة المستشرق الهولندي ونسنك A-J- Wensinch الذي نقل الكتاب الى الانكليزية ونشره سنة ١٩٠٩م •

وقد نشر الاب بولس بيجان نص كتاب (الحمامة) بالسريانية سنة ١٨٩٨م في باريس والاب جبرائيل قرداحي سنة ١٨٩٨م ايضا في روما والاب يوحنا دولباني (مطران ماردين بعدئذ) سنة ١٩١٦ م •

ونقل الى العربية حوالي سنة ١٢٩٩ م وسمي كتاب الورقاء في علم الارتقاء(٤٢) وله نسخ عديدة ثلاث منها في الشرفة الاولى ترتقي الى القرن السابع عشر وهي كرشونية • ونشر الاب يوسف حبيقة ، ترجمة عربية لهذا الكتاب في مجلة (المشرق ٥٠ [بيروت ١٩٥٦] ص ١٧ـ٦٦) •

---

(٤١) الحمامة تحقيق كاتب هذه السطور وتعريبه بغداد ١٩٧٤ المقدمة ص ١٠ـ١٤

(٤٢) اللؤلؤ المنثور ص ٤٢٤

جـ ـ ملخص تفسير الكتاب المنحول ابرثاوس ، وهـو صغير الحجم ينطـوي على ٢٢ فصلا ويقع في١٩٠صفحة ولا علاقة له بما احتواه من اراء (بانثيئستية)(٤٣) اقدم مخطوطة له في لندن انجزت حوالي سنة ١٣٣٠ م (٤٤) ٠

٥ ـ الكتـــب الطقســـية :

هذب ابن العبري واوجز سنة ١٢٨٢ م ليترجية (٤٥) ماريعقوب الرسول الملقب باخي الرب ، نسخها لاتحصى فهي مستعملة في الكنائس السريانية الارثوذكسية في في العالم ، ترجمت الى العبرية والانكليزية والمليالم (لغة جنوب الهنـد) وطبعت ٠ والاسبانية والبرتغالية ولم تطبع بعد بهاتين اللغتين ٠ وهذه الليترجية تعـرف بلترجية مار يعقوب الرسول الصغرى ٠

ووضع ابن العبري ليترجية مطلعها «رحيم انت ايها الرب ورحمتك منشورة على العالمين» ومنها نسخة في باريس تاريخها ١٤٥٤م نقلها الى اللاتينية رينودوت ونشرها والنص السرياني مع ليترجية مار يعقوب الرسول التـي اوجزها ابـن العبري ، وذلك في مجموع ليترجيات المشرق(٤٦) ٠

ولابن العبري تعليق على طقس تبريك الماء في عيد الدنح(٤٧) كتبه سـنة

---

(٤٣) البانثيئستية هي الاعتقاد بان كل طبيعة هي مساوية في الجوهـر للذات الالهية والجوهر الالهي انظر اللؤلؤ المنثور ص ٤٢٨ ٠

(٤٤) عـن اللؤلؤ المنثور ص ٤٢٨

(٤٥) كلمة يونانية تعني الخدمة الجمهورية وهي مجموع صلوات القداس ويقال لها ايضا انافورا وهي ايضا لفظ يوناني معناه رفع القربان (اللؤلـؤ المنثور ص ٥٠٢) ٠

(46) Renaud@tu, Liturgiarum Orient Collectio , 11 , 456

(٤٧) اللؤلؤ المنثور ص ٤٢٩ عن معذعذ ان في دير الزعفران والخزانة البطريركية في دمشق ٠

١٢٨٣م • كما اوجز كتاب رتبة المعمودية لمار سويريوس الانطاكي(٤٨) ونسب بعضهم هذا الموجز الى يعقوب الرهاوي •

٦ ـ الخطابـــــة :

كان ابن العبري واعظا ناجحا وخطيبا مصقعا ذكر له موقفة الخطابي يـــوم رسامته مفريانا • ولم يصل الى يدنا من خطبه سوى النزر اليسير من ذلك خطبة عربية بليغة لعيد السعانين حققها ونشرها البطريرك افرام الاول برصـــوم(٤٩) وخطبة في التوبة وردت في بعض كتـب باريس بالكرشونيـة تقرأ كمرثاة عـلى الجنـــــازة(٥٠) •

ثانيا : التاريخ المدني والديني :

١ ـ تاريـــخ الزمان (السرياني) : كتاب ضخم كتبه بالسريانية واســـماه محطحدها وتحكم اي تاريخ الزمان ، بدأ فيه من خلق العالم الى ايامه وروى اهم حوادث العالم دولا وملوكا ، وعلماء ورؤساء الى سنة ١٢٨٥م وضمن ذلك ٣٣٢ فصلا • ومصادره في ذلك تاريخا يعقوب الرهاوي وميخائيل الكبير وتواريخ سريانية وعربية وغيرها • واقدم مخطوطاته مخطوطة مكتبة الفاتيكان كتبت قبيل ســـنة ١٣٥٧م واكسفرد وانجزت سنة ١٤٩٨م والقدس اواخر القرن الخامس عشر وهذه المخطوطات تضم ايضا التاريخ الديني بجزئيه • والكتاب في جملته مهم ومفيد جدا وهو يتناول بوجه خاص منطقة الشرق وما يتعلق بها من حوادث في العالم المعروف يومذاك • وتتجلى اهمية الكتاب بالتفاصيل التي اوردها ابن العبري للحوادث التي عاصرها او التي جرت امامه وبالكلام على الاشخاص الذين عرفهم او سمع عنهم •

---

(٤٨) شيخو ـ المشرق (١٨٩٨) ص ٤٥٣

(٤٩) المجلة البطريركية السريانية ـ القدس ٢ (١٩٣٥) ص ٢٢٨ـ٢٣٥

(٥٠) المشرق البيروتية ١ (١٨٩٨) ص ٦٠٦

٢ ـ تاريخ مختصر الدول (العربي) :

وقد طلب علماء المسلمين العرب في مراغة الى ابن العبري ان ينقل كتابه (تاريخ الزمان) من السريانية الى لغة الضاد فلبى طلبهم واتم تعريبه الا بعض صفحات ، وذلك في نحو شهر من الزمان ، افرغه في لغة بليغة وسماه (تاريخ مختصر الدول) وهو وان توخي فيه الايجاز الا انه اضاف اليه امورا كثيرة لاتوجد في المطول (السرياني) ولاسيما ما يتصل بتحرير العرب اراضيهم من الفرس والرومان في ايام الفتوحات الاسلامية ، وتاريخ دولتي الاسلام والمغول ، وتزاحم العلماء والاطباء ، مستقيا الحقائق التاريخية من ينابيع المؤرخين العرب كالطبري وابن الاثير وغيرهما .

نشر برنس وكيرش التاريخ السرياني بجزئين في ليبسيك سنة ١٧٨٩م وجدد طبعه الاب بيجان اللعازري سنة ١٨٩٠م ونشر واليس بج مع ترجمة الانكليزية في مجلدين في اكسفرد سنة ١٩٣٢ ونقله القس اسحق ارملة الى العربية ونشره تتابعا في مجلة المشرق البيروتية في المجلدات ٤٣ـ٥٠ للسنوات ١٩٤٩ـ١٩٥٦ .

اما تاريخ مختصر الدول (العربي) فمخطوطاته كثيرة في فلورنسا وباريس ولندن واكسفرد . طبع العلامة ادوار پوكوك موجزا عنها ، اسماه « مختصر تاريخ العرب » لابن العبري ، في مدينة اكسفرد سنة ١٦٥٠ م ثم طبع الكتاب بالعربية واللاتينية سنة ١٦٦٣ م بمراجعة پوكوك نفسه ، وقد ترجمه بور الى الالمانية وطبع سنة ١٧٨٣م . ثم طبع الاب انطون صالحاني اليسوعي النسخة العربية في بيروت سنة ١٨٩٠م واعيد طبعه سنة ١٩٥٨م . وهذه الطبعة الاخيرة ، نشرت بعد ذلك بالاوفست في بيروت .

٢ ـ التاريخ الكنسي بالسريانية وهو مجلدان يتضمن المجلد الاول تاريخ بطاركة انطاكية ، فبعد ان يتناول تاريخ الاحبار في العهد القديم بدءا من هرون حتى حنان في عصر السيد المسيح يبدأ باخبار العهد الجديد بدءا من الرسول بطرس ويستطرد مفصلا تاريخ بطاركة انطاكية حتى فيلكسينوس نمرود المتوفى

سنة ١٢٨٥ م ٠

اما المجلد الثاني فهو تاريخ جثالقة المشرق ، وابتدأ به بترجمة الرسول توما وختمه بترجمة نفسه التي اكملها بعد وفاته اخوه برصوم الصفا ٠

نسخ المجلدين ضمن النسخ التي ذكرناها انفا وتضم التاريخ المدني ايضا ونضيف الى ذلك نسختنا التي انجزت سنة ١٨٥٨ م وتضم التاريخ البيعي بجزئيه فقط (٥١) ٠

نشره المستشرقان ابيلوس ولامي بجزئين في لوفان سنة ١٨٧٢ ـ ١٨٧٧ ولخصه الخوري اسحق ارملة وعربه ونشره تباعا في مجلة المشرق البيروتية لعامي ١٩٢٣ و ١٩٢٤ ٠

ثالثا : قواعد اللغة السريانية

لابن العبري في هذا الميدان كتابان ، الاول وهو كتاب ܟܬܒ ܠܡܥ اي اللمع والثاني كتاب ܟܬܒ ܡܕܟܠ اي المدخل ٠

ويعد ابن العبري امام النحويين السريان وهو بكتابه (اللمع) يحذو حذو جارالله الزمخشري (ت ١١٤٤م) بكتابه (المفصل) ٠ فقسم ابن العبري مثله كتابه الى اربعة اقسام بحث فيها في الاسماء والافعال والحروف والمشترك ٠ واخذ ايضا عن العرب اصطلاحاتهم بهذا الباب ٠(٥٢)

اما كتاب (المدخل) فهو ملخص كتاب (اللمع) نظمه ابن العبري

---

(٥١) اهدانا هذه النسخة الاستاذ متى المقدسي جرجيس فندقلي ٠

(٥٢) اللؤلؤ المنثور ص ٤٢٥ وشيخو ـ المشرق البيروتية ١ (١٨٩٨) ص ٥٠٧ عن تاريخ اللغة السريانية للدكتور ماركسي

Hist, drtiş gram . op Syror p. 229 - 275

على البحر الافرامي واتمه في مدة اسبوعين اثنين ، فهو قصيدة لغوية مطولة تنيف على ستمائة بيت • وعاق عليه شروحا وتفاسير واتبعه بمقالة في الالفاظ المهمة • وقد نسج به على منوال ابي عبدالله محمد ابن مالك (نحو ١٢٠٣ ـ ١٢٧٤) بكتابه (الالفية) •

من اهم مخطوطات (اللمع) نسخة دير الزعفران انجزت سنة ١٢٩٨ م وفلورنسة سنة ١٣٩٢ ولندن سنة ١٣٣٢ والقدس وبوسطن واكسفرد والخزانة البطريركية بدمشق ، والشرفة • نشره المستشرق الفرنسي مارتان في باريس سنة ١٨٧٣م على مطبعة حجرية ونشره اكل موبرغ في ليبسيك مع ترجمته الالمانية سنة ١٩٠٧ـ١٩١٣ م •

اما مخطوطات (اللمع) فاقدمها نسخة في جامعة شيكاغو انجزت سنة ١٢٩٠م وفلورنسة سنة ١٣٦٠م والخزانة البطريركية في دمشق سنة ١٣٧١م وفي الشرفة خمس نسخ اقدمها انجزت سنة ١٥٨١م والقدس سنة ١٥٨٦ م وبرمنكهام سنة ١٥٨٥م ولندن وديـر الزعفران وباريس • نشره في باريس سنة ١٨٧٣ م المستشرق مارتان على مطبعة حجرية •

وقد ابتدا ابن العبري بتاليف كتاب ثالث في قواعد اللغة السريانية وسماه [illegible] اي (شرارة) ليكون خلاصة لهذا العلم ولكن الموت عاجله قبل اتمامه وهذا الكتاب مفقود •

رابعا : الفلسفة

١ ـ زبدة الحكمة [illegible] وضعه ابن العبري بالسريانية وهو من ابدع ما صنف ، بل اروع ما كتب في الفلسفة باللغة السريانية ، قوامه جزآن في ٩٥١ صفحة تضمن الجزء الاول العلم المنطقي الفلسفي : ـ ايساغوجي وكتاب المقولات العشر والعبارة وتحليل القياس والبرهان والجدل والمغالطة والخطابة والشعر وهو مجمل نظام الفلسفة الارسطاطالية • والجزء الثاني تضمن العلم الثاني من الطبيعيات وجعله قسمين تناول في الاول : الامور

العامة لجميع الطبيعيات كالمادة والصورة والحركة والـــخ ٠ وكذلك الســـماء والعـــالـــم والكـــون والفساد للنشوء والفناء ثم المعادن والينابيع والعناصر الاربعة والشهب والغيوم والصواعق والرياح والزلازل والبحار والجبال ٠وشرح موضوع النبات والكائنات النامية وموضوع الحيوان وطبائعه وحال الكائنات الحيوانيـة وكذلك النفس معرفتها والقوى والمدركة والمحركة التي في الحيوان وخاصة فـــي الانسان ٠ وتناول في الجزء الثاني الفلسفة والعلم الالهي اي ما وراء الطبيعـــة٠ وعلم الاخلاق وتدبير الذات والمنزل ، وسياسة المدنوطبائع الامم(٥٣) ٠

للجزء الاول نسختان في فلورنسة اقدمهما مؤرخة بسنة ١٣٤٠ م واكسفرد سنة ١٤٩٨ م وللجزء الثاني نسخة البطريركية السريانية الارثوذكسية بدمشـق خطت سنة ١٢٨٥ـ١٢٨٦ م في حياة مؤلفـــه ابـن العبـري ، ونسخة الخزانـة الكلدانية بامـــد سنة ١٣٨٩ م(٥٤) ٠

وقد اختصر ابـن العبري هـذا الكتاب بوضع كتابـــه الثاني الذي اسمـاه ܡܣܚܪܬ ܡܣܚܪܬ ܐ اي (تجارة الفوائد) فجاء مجلدا وسطا في المنطـــق والفلسفة وكتبه قبل سنة ١٢٧٦ م ٠ اهـــم مخطوطاته نسخة كمبـرج التـــي انجزت سنة ١٢٧٦م وفلورنسة : القرن الرابع عشر والقدس سنة ١٥٧٤ م ٠

ووضع كتيبا اسماه ܒܘܙܝ (البؤبؤ او الاحداق) في المنطق والفلسفة ينطوي على سبعة ابواب باربعين صفحة صنفه بعد سنة ١٢٧٥م ، اهم مخطوطاته احدى ثلاث نسخ في جامعة روكفلر بشيكاغو انجزت سنة ١٢٩٠م ، ولندن وكمبرج سنة ١٥٧٩م والخزانة البطريركية بدمشق والشرفة ٠

وكتاب اخر صغير اسماه ܚܕܝܬ ܚܟܡܬ اي (حديث الحكمة) وينطوي على اربعة ابوابلكل منها فصولويتناول ١ ـ علم المنطق ٢ ـ الطبيعيات ٣ ـ ماوراء الطبيعة ٤ ـ النفس والثواب والعقاب والخ ٠٠٠ الفه بعد سنة ١٢٧٥م واقـــدم

---

(٥٣) لخصنا وصف الكتاب عن اللؤلؤ المنثور ص ٤١٧ـ٤١٨

(٥٤) عنـــه ص ٤١٩

مخطوطاته نسخة شيكاغو التي خطت سنة ١٢٩٩م ولندن حوالي سنة ١٣٣٠م نشر البطريرك افرام الاول برصوم سنة ١٩٤٠ م ترجمته العربية الفصيحة اعتمادا على نسخة انجزت عام ١٦٠٨م اصابها في ماردين. ونقله هرمن جانس الى الفرنسيه سنة ١٩٣٧م ونشره مع النص السرياني .

اما بالعربية فلابن العبري رسالتان في النفس مختصره ومطوله ، يستعرض فيها اراء العديد من الفلاسفة القدامى ثم ياخذ برأي ارسطو في تحديد النفس كما فعل الشيخ الرئيس ابن سينا الفيلسوف العربي(٥٥) وابن العبري في ابحاثه الفلسفية يعتمد على ابن سينا ولا سيما فيما يخص النفس .

اما الرسالة المختصرة فهي ١٢ فصلا و ٢٦ صفحة نشرها شيخو في بيروت سنة ١٨٩٨ وقال غراف GRAF ان ابن العبري اقتدى فيها برسالة سريانية بالعنوان نفسه للكاتب السرياني موسى ابن كيفا الذي نقل بدوره عن كتاب يوناني «في النفس البشرية» لطليانس نسب خطا لغريغوريوس العجائبي .

والرسالة الثانية المطولة في علم النفس البشرية تنطوي على ٢٦ فصلا و ٧٤ صفحة ، نشرها القس بولس سباط في مصر سنة ١٩٢٨ ونشرها البطريرك افرام الاول برصوم سنة ١٩٣٨م معتمدا على نسخة من القرن الثالث عشر حظي بها في هريست نيويورك ـ اميركا وعلق عليها مستدركا اغلاط الناشر الاول(٥٦) .

ونقل ابن العبري من العربية الى السريانية كتاب الاشارات والتنبيهات للفيلسوف العربي الشيخ الرئيس ابن سينا وسماه بـ [illegible] وهو كتاب ضخم يقع في ٢١٨ صفحة من الحجم الكبير يتناول المنطق والفلسفة وماوراء الطبيعة انجز ابن العبري سرينته قبل سنة ١٢٧٨م بلغة بليغة ـ قال

---

(٥٥) المشرق الموصلية ١ (١٩٤٧) ص ٨١٩ـ٨٢٥ عن النجاة لابن سينا مطبعة السعادة القاهرة ١٣٣١ هـ ص ٢٥٨

(٥٦) اللؤلؤ المنثور ص ٤٢٠

البطريرك افرام الاول برصوم(٥٧) : «وهذه الترجمة الحرية بالذكر لم ينوه بها المعاصرون من كتاب الفلسفة العربية » . اهم مخطوطاته نسخة فلورنسة انجزت عام ١٢٧٨م وملبار عام ١٥٤٧م وباريس عام ١٦٣٣م والفاتيكان عام ١٦٥٤م .

ونقل ابن العبري ايضا من لغة الضاد الى السريانية كتاب (زبدة الاسرار) لاثير الدين الابهري (ت ١٢٦٤م) وهو مفقود .
وفي ديوانه ايضا عدة قصائد فلسفية .

خامسا : علم الهيئة والرياضيات :

لابن العبري في علم الهيئة اي الفلك ، ثلاثة كتب هي :-

١ - تفسير كتاب (المجسطي) لبطلميوس القلوذي وهو بحث في علم النجوم وحركات الافلاك . نهض ابن العبري بشرحه شرحا وافيا وعلق عليه وانجزه في مراغة سنة ١٢٧٣م وهو مفقود .

٢ - وله كتاب (الزيج الكبير) ܙܝܓ ܪܒܐ ܕܡܫܚܐ اي معرفة حركات الكواكب لاستخلاص التقويم السنوي وتعيين الاعياد المتنقلة ، ويقع باربعين صفحة ومخطوطته اليتيمة في الفاتيكان(٥٨) .

٣ - كتاب ܣܠܩ ܥܠܬܐ ܕܫܡܝܐ اي الصعود العقلي . وضعه بالسريانية سنة ١٢٧٩م . اما المصطلحات العلمية فكتبها بالسريانية واليونانية زيادة بالفائدة وفصل فيه العلوم الفلكية . والكتاب جزءان يحتوي اولهما على ثمانية فصول ويستعرض اقوال القدامى عن هيئة السماء والارض ، ومطالعة ابن العبري على هذه الاقوال ثم كلامه على الشمس والقمر والسيارات وافلاكها الخاصة وما يختص بالنجوم الثوابت . اما القسم الثاني ففيه سبعة فصول ويبحث في هيئة الارض

---

(٥٧) فيه

(٥٨) مجلة المشرق البيروتية ١ (١٨٩٨) ص ٥٠٨

والاجرام العلوية والجزائر والبحار والانهار والظل واقسام الزمن • ولزيادة الفائدة فقد رسم المؤلف اشكالا هندسية ورسوما حيثما اقتضت الحاجة • يقول ابن العبري في مقدمة الكتاب انه يبحث في : «اشكال الاجرام والحركات الجوية وابعاد الاجرام السماوية عن بعضها وحجومها بصورة مختصرة ، وترك البحوث الهندسية والفلكية الكبرى الى الموسوعة الكبرى المسماة (المجسطي) وسميته الصعود العقلي لان به يتصاعد العقل الى السماء العالية تصاعده فوق عجلات ناطقة وقد قسمته الى قسمين الاول يبحث شكل السماء والثاني شكل الارض» •

يقول شيخو «وفي هذا التاليف اشارات الى بعض الاكتشافات الحديثة اخذنا العجب لما اطلعنا عليها» (٥٩) •

نشر منه المستشرق (غوتل) فصلا في رسم الارض ونقله الى الانكليزية سنة ١٨٩٠ ، كما نشره القس فرنسوا نو ونقله الى الفرنسية سنة ١٨٩٥ معتمدا على اربع مخطوطات في باريس واكسفرد وكمبرج اقدمها انجزت في القرن الرابع عشر(٦٠)
عرب الاب (المطران بعدئذ) بولس بهنام فصولا يسيرة منه ونشرها (٦١) •
ولابن العبري في الرياضيات تفسير كتاب اقليدس في المساحة اتمه سنة ١٢٧٢م وهو مفقود •

سادسا : الشعر

يعد ابن العبري في الرعيل الاول بين شعراء السريانية ، فشعره سلس ، دسم، معبر ، بليغ ، استعمل فيه القافية (٦٢) وتفنن بذلك كثيرا ، وقد اجاد في كل

---

(٥٩) «المشرق» البيروتية ١ (١٨٩٨) ص ٥٠٨
(٦٠) اللؤلؤ المنثور ص ٤٢٦
(٦١) مجلة «لسان المشرق» الموصلية ٢ (١٩٤٩-١٩٥٠) ص ٢١-٢٤ و ٤٨-٥٠ و ١٠٣-١٠٤ و ٢٤٤-٢٤٧ •
(٦٢) نظم السريان قصائدهم دون التزام بقافية ، وكان الشعر لديهم سليقة فجاءت قصائدهم سلسلة بديعة معنى ومبنى كقصائد مار افرام السرياني واسحق =

ابواب الشعر التي طرقها من مديح وهجاء ووصف ورثاء واخوانيات وزهد وحكمة وفلسفة · ونظم اكثر قصائده على البحر السروجي ، ولا يعاب الا باستعماله الالفاظ اليونانية بكثرة مع وجود ما يقابلها او يقاربها بالسريانية ·

وقد سارت بقصائده الركاب ، وانتشرت كثيرا ، وحفظها السريان على ظهر قلب وانشدوها فيمناسبات الافراح والاتراح وتهافت الخطاطون على نسخها فوجد منها مخطوطات كثيرة اهمها مخطوطة فاتيكانية تضم ٣٠٨ مقاطيع واحدى مخطوطتي اكسفرد انجزت سنة ١٤٩٨م · ويحوي ديوان شعر ابن العبري ثلاثين قصيدة واكثر من مائة مقطوعة شعرية تتراوح بين البيتين والعشرة · نشر « لنجرك » معظم هذه الاشعار في « كنغسبرغ » سنة ١٨٢٦ـ١٨٣٨ م كما نشرها الاب اوغسطينوس شبابي الراهب الماروني في روما سنة ١٨٧٧م ونشر له « بج » سنة ١٨٩٧م مقتطفات شعرية · وطبع له القس يعقوب منا منتخبات شعرية في (المروج النزهية) · ونشر شابو وهارلز قصيدة شعرية له في ليدن سنة ١٨٩٦ م ·

ونشر الاب (المطران بعدئذ) يوحنا دولباني سنة ١٩٢٩م ديوان ابن العبري الشعري في مطبعة مار مرقس بالقدس بطبعة انيقة متقنة · واجاد بتبويبه، وذيله بفهارس القصائد وبدء ابياتها وختامها · وبجدول بمعاني الالفاظ السريانية والا عجمية الصعبة الواردة فيه · وقد خلت هذه الطبعة وطبعة شبابي من قصيدتين افراميتين احداهما في الثالوث الاقدس ذكرت في مخطوطة اكسفرد ، والثانية في موضوع لاهوتي جدلي تضمنت الحجج الدامغة المعززة بشواهد من الكتاب المقدس وتعاليم الاباء وهي رسالة نظمها ابن العبري حوالي سنة ١٢٨٢ م جوابا للجاثليق دنحا الاول النسطوري كما مر بنا انفا ·

الامدي وبالاي ويعقوب السروجي والقواقين ويعقوب الرهاوي وغيرهم · وفي القرن التاسع للميلاد بدأوا باستعمال القافية مقلدين بذلك العرب · ولعل انطون التكريتي الفصيح احد مبتكريها · واستعمال القافية افقد الشعر سلاسته فبدت على اغلبه ظاهرة التكلف ·

ولابن العبري في ميدان الشعر ايضا كتاب (المدخل) الذي ذكرناه في كلامنا على قواعد اللغة ، وقصيدة تزيد على ستمائة بيت مرتبة على احرف المعجم جمع فيها الالفاظ المتشابهة بالحروف في اللغة السريانية على طريقة الجناس اللفظي في علم البديع بالعربية ، والحق بها تفسيرا لتلك الالفاظ وضمها الى كتاب (المدخل) ٠

اما قصيدته المشهورة في (الحكمة الالهية) فقد نظمها على طريقة الصوفيين العرب فتغزل بها بالكمالات الالهية كعمر بن الفارض (ت ٦٣٢ هـ) مشبها اياها بفتاة جميلة المنظر سامية الخصال ، وهي في ١٦٠ بيتا طبعها جبرائيل الماروني ببارس سنة ١٦٢٦م والقس يوحنا نطين الراهب الماروني برومة سنة ١٨٨٠م ونشر الاب جبرائيل قرداحي مقتطفات منها ٠ كما نشرها الاب بطرس سارة اللبناني في مجلة المشرق البيروتية ٥١ (١٩٥٧) ص (٧٠٧ـ٧٣٥) مع الترجمة العربية ٠ وعرب بعضهم ابياتا منها شعرا ٠

وقد اجاد بتعريبها شعرا والتعليق عليها الملفان المطران بولس بهنام ودعاها بـ (الملحمة الحمراء) ونشرها بعدد ممتاز من مجلته لسان المشرق الموصلية٣(١٩٥٠) كما نشر النص السرياني والترجمة في كتاب عنونه بـ (ابن العبري الشاعر) مطبعة الشباب في القامشلي سنة ١٩٦٥ وضم الى ذلك ما كان قد عربه شعرا من قصائده وهي : الشمعة الذابلة والمروحة ٠

سابعا : الطب

درس ابن العبري الطب على ابيه وعلى امهر اطباء زمانه كما مر بنا ٠ وله فيه ثمانية كتب وهي :

١ ـ كتاب كبير الفه بالسريانية جمع فيه اراء الاطباء في المواد الطبية بغاية التفصيل وهو مفقود ٠

٢ ـ كتاب الفه بالعربية بعنوان منافع اعضاء الجسد ܟܬܒܐ ܕܡܢܦܥ̈ܐ ܕܐܒܪ̈ܐ وهو مفقود ٠

٣ ـ كتاب شرح فيه فصول ابقراط بالعربية • وهو صغير نسخته اليتيمة في مكتبة بطريركية السريان الارثوذكس بدمشق انجزت سنة ١٦٤٠م •

٤ ـ كتاب تفسير مسائل حنين ابن اسحق الطبيب (ت ٨٧٨م) بالسريانية وهو مفقود (٦٣) •

٥ ـ كتاب تحرير مسائل حنين ابن اسحق الطبية بالعربية وهو صغير الحجم نسخته اليتيمة في البطريركية بدمشق •

٦ ـ اختصر كتاب ديوسقوريدس الطبيب العينزربي اليوناني المشهور ونقله من العربية الى السريانية ودعاه بـ (كتاب انتخاب ديوسقوريدس) وهو في صور النباتات التي تصلح للمعالجة وتعريف خواصها ومنافعها وقوتها واختيارها واصلاحها واتقانها وهو مفقود •

٧ ـ منتخب كتاب جامع المفردات اي الادوية بالعربية لابي جعفر احمد بن محمد بن خليد الغافقي من اعيان الاندلس (ت٥٦٠ هـ) الذي استقصى فيه ما ذكره ديوسقوريدس وجالينوس وغيرهما في ثلاثة مجلدات فاختصره ابن العبري وسهل بذلك الانتفاع به وعنونه بـ (منتخب الغافقي في الادوية المفردة) • اقدم مخطوطة له في دار الكتب بالقاهرة انجزت سنة ١٢٨٥م اي في عصر المؤلف وهي في ١٤٦ ورقة نشر الدكتوران ماكس مايرهوف وجورجي صبحي جزءين منه مع ترجمة الى الانكليزية سنة ١٩٣٢ـ١٩٣٧ • ومخطوطة ثانية في خزانة الكراندوك في مدينة غوثا بالمانية كتبت سنة ١٦٩٤م •

٨ ـ كتاب القانون لابي علي ابن سينا الشيخ الرئيس ، نقل عنه ابن العبري من العربية الى السريانية اربعة كراريس وحالت المنية دون انجازه وهو مفقود •

---

(٦٣) المجلة البطريركية القدسية ٧ (١٩٤٠) ص ١٤٩

ثامنا : منوعـــات

١ ـ كتيب الاحاديث المطربة · وضعه بالسريانية وسماه [illegible] قسمه على عشرين بابا ، ويقع باربعين صفحة ، وانتخب فيه فوائد من اناس ينتمون الى حضارات مختلفة من ذلك فلاسفة اليونان وحكماء الهند ، وملوك العـــرب ، ورهبان ونساك واطباء ، واسخياء وبخلاء وفكاهات المشعوذين والمضحكين وغـــير ذلك ، اهم مخطوطاته احدى نسختي دير الشرفة انجزت على الاغلب في القـــرن الخامس عشر جلدت عام ١٧١٣م · ونسخة مخرومـــة في استنبول انجزت عـــام ١٦٠٥م وباريس ١٦٧٠م · نشره (بج) عام ١٨٩٧م ونشر له الاب لويس شـيخو ترجمة عربية قديمة في مجلته (المشـــرق) البيروتية ٢٠ (١٩٢٢) ص ٧٠٩ـ٧١٧ و ٧٦٧ـ٧٧٩ ·

٢ ـ كتيب في تفسير الاحلام الفه في صباه وبناه على مراقبة الكواكب ورصد البروج ككتاب ابن سيرين (ت ١١٠ هـ) عند العرب ·

فبعد ان استعرضنا حياة العلامة ابن العبري العلمية والعملية لايسعنا الا ان نردد مع البطريرك دنحا «طوبى لشعب اصاب كمثل هذا» ·

16— J.Bakos Psychologie de G.A. dit B.H. d'apres la huitieme base de l'ouvrage Le Candelabre des Sanctuaires, Leiden 1948 (syr. & fr.)

17— A. Torbey, Les preuves de l'existence des anges d'apres le traite de G. B.H. sur les anges, OC 39 (1955), 119-134

بيبلوغرافيـــا ـ ابـن العبري

BIBLIOGRAPHY (BARHEBRAEUS)

1— L. CHEIKHO, Une version arabe des Recits Plaisants de B.H., Al-Machriq 20 (1922), 709 ss, 767 ss.

2— W.F. CARR, Greg. A. Faradj commonly called B.H. : Commentary on the Gospels from the Horreum Mysteriorum, London 1925

3— F.S. MARSH, The book which is called The Book of the Holy Hierotheos With Extracts from the Prolegomena and Commentary of Theodosios of Antioch and from the "Book of Excerpts " and other Works of Gregory B.H., London-Oxford 1927

4— G. Furlani, Die Physiognomik des B.H. in syrischer Sprache, Zeitsch. f. Semitistik 7 (1929), 1-16

5— G. Furlani, La psicologia di Barhebreo secondo il libro "la crema della sapienza" , RSO 13 (1931), 24-52

6— M. Sprengling - W.C. Graham, B.H. Scholia on the Old Testament (Genesis - II Samuel), Chicago 1931.

7— G. Furlani, B. H. sull,anima razionale, Orientalia 1 (1932), 1-23, 97-115

8— H.F. Janssens, B.H. Book of the pupils of the eye, Oxford 1932

9— H. Koffler, Die Lehre des B.H. von der Auferstehung der Leiber, Rom 1932, Or. Christ. 81

10— G. Furlani, Avicenna, B.H., Cartesio, RSO 14 (1933), 21-30

11— G. Furlani, Di tre scritti in lingua siriaca di B.H. sull'anima, RSO 14 (1933), 284-308

12— G. Furlani, La demonologia di B.H. RSO 16 (1935), 375-387

13— H.F. Janssens, l'Entretien de la Sagesse (Introduction aux oeuvres philosophiquesde B.H.), Bibl. de la Fac. de Philes. et Lettres de l'Univ-de Liege, t. 75 (1937)

14— J. Bakos, Die Einleitung zur Psychologic des B.H. im achten Fundamente seines Buches der " Leuchte des Heiligtums ", Archiv. Orientalia 10 (1938), 121-127

15— E. Honigmann, Zur Chronographie des B.H., Or. Lit. Zeit. 37 (1934), 273-283

تمهيد

بعد حمد الله تعالى نقول :

يعتبر التصوف جانباً مهماً من جوانب الثقافة السريانية العريقة ، ولوناً زاهياً من الوان الفكر السرياني الخالد ، وهو فرع من فروع علم اللاهوت ، ويطلق عليه اسم اللاهوت النسكي أو الصوفي ، أو علم كمال الحياة المسيحية . وهذا الكمال يسمى الناسك الى بلوغه عن طريق التطهر فالاستنارة ثم الاتحاد بالله .

والعلامة مار غريغوريوس يوحنا ابو الفرج المعروف بأبن العبري ، هو من أشهر من طرق هذا الباب من علماء السريان .

ولد علامتنا المرموق في مدينة ملطية قاعدة ارمينية الصغرى ، عام ١٢٢٦م من أبوين مسيحيين (١) ، وأحب العلم منذ نعومة اظفاره ، وشغف به ايما

---

(١) زعم بعض المستشرقين توهماً ، ان ابن العبري هو من أصل يهودي وان اباه هو الذي تنصر ، مستندين الى لفظة العبري كدليل لذلك ، والواقع انه يتحدر من أسرة مسيحية عريقة ، وكني بأبن العبريّ لولادة أحد آبائه أو لولادته في اثناء عبور نهر الفرات ، أو لتزوج أبيه أو جده من قرية (عبرة) الجاثمة على نهر الفرات قرب ملطية . وكفى به دليلا بيت شعر مشهور قاله هو نفسه وهذه ترجمته : « اذا كان سيدنا المسيح سمى نفسه سامرياً ، فلا غضاضة عليك ان دعوك بأبن العبري ، لأن مصدر هذه التسمية نهر الفرات ، لا ديناً معيباً ولا لغة عيبة » . (انظر ديوان شعره السرياني طبعة الراهب (بعدئذ المطران) يوحنا دولباني في اورشليم سنة ١٩٢٩ ص٧١ واللؤلؤ المنثور للبطريرك أفرام الاول برصوم طبعة حلب ١٩٥٦ ص٥١٢ ، والايشيقون ترجمة المطران بولس بهنام طبعة القاشلي سنة ١٩٦٦ ـ المقدمة ص٦ ، والكنيسة السريانية الانطاكية الارثوذكسية للبطريرك يعقوب الثالث طبعة دمشق سنة ١٩٧٤ ص١٣) .

شغف ، وأكب عليه بكل جوارحه ليل نهار ، فأتقن اللغات السريانية واليونانية والعربية ثم الفارسية والأرمنية .

وتبحر في علوم : الكتاب المقدس ، واللاهوت ، والتاريخ الكنسي والمدني ، والطب ، والهيئة ، والشرع البيعي والمدني ، والمنطق ، والبيان والنحو ، والشعر وغيرها من العلوم التي دبجت يراعـــه فيها ستة وثلاثين كتاباً تعتبر جميعها في القمة مقاماً وأهمية .

لما بلغ ابن العبري الثامنة عشـرة من عمره ، جاء وأهله الى انطاكيـة ، فترهب ، وفي هذه الفترة ، لابد انه اعتزل العالم واختبر فلسفة التصوف عملياً ، وأخـــذ علم المعرفة الروحيـة ، بمطالعـة الكتب النسكية ، ورسمه البطريرك اغناطيوس الثالث أسقفاً لبلدة جوباس من اعمال ملطية عام ١٢٤٦م وسمي غريغوريوس ، ثم انتقل الى ابرشية لاقبين فأبرشية حلب .

وفي عـام ١٢٦٤م رسـمه البطريرك اغناطيوس يشـــوع مفريانـاً (١) على المشرق ، فدبر كرسي المفريانية اثنتين وعشرين سنة بخوف الله وحكمته ، متنقلاً بين نينوى ، ودير مار متى ، والموصل ، وبغداد ومراغة وتبريز . وأزدهرت على عهده ابرشيات المشرق الواسـعة الممتدة عصرئذ من نصيبين حتى منتهى مـا بين النهرين ، وفارس ، والقوقاس .

وحظي بمكانته اللائقة لدى الرؤساء ، والعلماء ، فكرموا فيـه العـــلامة القدير ، والبحاثة الشهير ، والطبيب البارع ، والشاعر المبدع ، والخطيب المفوه ، بل الرئيس الروحي الورع ، والناسك الطاهر . وأدركته المنية في مدينة مراغة (٢)

---

(١) المفريان : كلمة سريانية بمعنى المثمر ، وهو أسم لصاحب رتبة كنسية عند السريان مرادفة للجاثليق فهو دون البطريرك وفوق الاسقف وكان كرسيه في تكريت ثم نقل الى دير مار متى فالموصل ج مفارنة (انظر اللؤلؤ المنثور ص٦٢٠)

(٢) من مدن ايران اليوم تقع جنوبي تبريز

في ٣٠ تموز سنة ١٢٨٦م وهو في الستين من عمره ، ثم نقل رفاته الطاهر الى دير مار متى في جبل الألوف الواقع شرقي مدينة الموصل .

يروى عنه انه لم يأخذ درهماً بيده ، طيلة ايام حياته ، فعندما كان المؤمنون المحسنون يأتونه بهداياهم ، كانوا يضعونها جانباً ، وكان أحد تلامذته الرهبان يجمعها ، ثم تصرف في مشاريع تؤول الى الكنيسة بالخير .

اعجب المستشرقون المهتمون بالدراسات السريانية بنبوغ ابن العبري وعبقريته ، فلقبوه بدائرة معارف القرن الثالث عشر .

خلف لنا ابن العبري ابحاثاً كافية ووافية في التصوف ، في شرحه وتلخيصه كتاب ايرثاوس في النسك ، وفي كتابه (الايثيقون) في علم الاخلاق لحسن السلوك في الدين والدنيا الذي اكثر فيه من اخبار النساك ، وسرد حكماً لهم . ثم في كتابه (الحمامة) الذي بين يديك ، ايها القاريء الكريم ، وهو مختصر في ترويض النساك ، ألفه بعد كتابته (الايثيقون) ، بانشاء سرياني جزل ، وأسماه (الحمامة) رمزاً الى الروح القدس الذي هبط على هامة السيد المسيح ، اثناء العماد ، بشبه حمامة .

ولكتاب الحمامة مخطوطات قديمة ، أقدمها مخطوطة المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو المرقمة (١١٩٩٧ آ) ، نسخها ابو الحسن بن ابراهيم بن يعقوب بن نختوما المعروف بأبن محرومه الماردين ، وذلك سنة ١٦٠١ يونانية = ١٢٩٠ ميلادية ، أي بعد انتقال ابن العبري الى جوار ربه بأربع سنوات فقط . وقد أذن لنا المسؤولون في المعهد المذكور آنفاً ، بنشرها بنصها وفصها ، فلهم منا اجزل الشكر والامتنان

وقد حققنا نص هذه المخطوطة النفيسة على مخطوطة جامعة اكسفورد التي كتبت حوالي سنة ١٤٩٩م وأشرنا اليها بحرف (أ) كما واعتمدنا بالتحقيق على

طبعة الأب بولس بيجان التي نشرها في باريس سنة ١٨٩٨م وقد أشرنا اليها بحرف (ب) ، وعلى طبعة الأب جبرائيل قرداحي التي نشرها في روما سنة ١٨٩٨م ايضاً وقد أشرنا اليها بحرف (ق) وعلى طبعة الأب يوحنا دولباني (المطران بعدئذ) التي نشرها في ماردين سنة ١٩١٦م وقد اشرنا اليها بحرف (د) ، وقد اعتمد الاخير في طبعته خاصة على طبعة الأب بولس بيجان المذكورة اعلاه .

ونرانا في عصرنا هذا الزاهر ، بأمس الحاجة الى ابراز الفكر السرياني لأبناء الضاد ، لذا فقد نقلنا هذا الكتاب الى العربية ، باذلين قصارى جهدنا لتكون الترجمة واضحة مفهومة ، وقريبة من النص السرياني .

وفي مضمار سعينا هذا عثرنا على المقدمة الانكليزية التي صدر بها المستشرق (وينسنك) ترجمته لكتاب (الحمامة) الى الانكليزية ، والتي نشرها في لايدن ـ هولندا سنة ١٩٠٩م فجاءت بحثاً مستفيضاً بموضوع النسك السرياني المسيحي ، وعلاقته بالتصوف العربي الاسلامي ، فراق لنا ان ننقل خلاصة المقدمة الى لغة الضاد الحبيبة .

هذا ونأمل ان يجد القاريء العزيز ، في هذا البحث ، متعة روحية ، وفائدة جزيلة . وما نشدانا الا الخير امام وجه الله الكريم جل وعلا .

بغداد : ١٩٧٤/٦/٦

زكا

المقدمة

(اقتبسناها باختصار عن مقدمة الترجمة
الانكليزية لكتاب « الحمامة » التي كتبها
المستشرق الهولندي الشهير (ونسنك)
A J. Wensinck المتوفى عام ١٩٣٩م)

يعتبر ابن العبري من اشهر علماء السريان وادبائهم ، طارت شهرته في الافاق ، فانتزع اعجاب القاصي والداني به ، وذاع صيته في اوربا وفجر عصر الاستشراق . فنقلت كتبه الى لغاتها ، ولا غرو فمصنفاته النفيسة قد تناولت صنوف المعرفة ، إذ يجد فيها طلبة العلم ونهلة الحكمة ، على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ما يطيب ويساغ .

تبوأ هذا الرجل العظيم رتبة دينية رفيعه في الكنيسة السريانية الارثوذكسية، ناهيك عن منزلته المرموقة في المجتمع بعامة وخاصة . ولكن رتبته هذه لم تقف حائلاً دون التزامه جانب التصوف ، والتحلي بالفقر الاختياري . فهو في التصوف الشخص الفقير المتواضع الذي تسعى روحه الى الاتحاد بالله ، وقد بلغ المرحلة التي فيها « مايزال النور قاتماً ، والسحب دكن كثيفة » . وإن كان كاتب سيرته لم ينوه عن ذلك ، ولكن ابن العبري نفسه وصف هذه الحالة في كتابه « الحمامة »(١)

---

(١) مقدمة الأعمال الالهية المائة التي تؤلف الباب الرابع من كتاب (الحمامة)

بكلمات واضحة وعبارات صريحة ، فيخبرنا عما عانت نفسه من عنت وألم وعذاب من جراء النزعات المذهبية الكنسية ، وكيف انه لم يرتح الى علوم اليونان وكاد يهلك روحياً في تشعباتها المظلمة لولا عناية الله به ، حيث انقذته فعاد تدريجياً وعلى رسله ، الى كتابات النساك واخيراً الى حياة الزهد والتصوف . وكانت حصيلة ذلك ان كتب في موضوع التصوف . فلخص أولاً تفسير كتاب ايرثاوس(١) ، ثم وضع كتاب « الايثيقون » فكتاب « الحمامة » ، وقصة حداثة العقل .

وقد كتب كتاب « الحمامة » بعد وضعه كتاب « الايثيقون » بزمن قليل ، ويرجح انه كتب هذا الاخير عام ١٢٧٨ م اي قبل انتقاله الى جوار ربه بثمانية اعوام . واعتبر بعضهم كتاب « الحمامة » تلخيصاً لكتاب « الايثيقون » ولكن هذا الرأي هزيل لا يؤبه به ، ولو ان اكثر محتويات الابواب الثلاثة الأولى من كتاب « الحمامة » قد وجد في كتاب « الايثيقون » ، الا انها باسلوب آخر .

ويخبرنا ابن العبري في مستهل عباراته الالهامية في كتاب « الحمامة » أن سبع سنوات من حياته قد اوقفها على دراسة مؤلفات النساك ، ومن ثمار ذلك ايضاً الشروحات الضافية التي تركها لنا بدراسة كتاب ايرثاوس ، وما تزال النسخة القديمة من الكتاب في المتحف البريطاني وقد خطت عام ١٢٦٨م وهي تشهد لنا على عظم تأثير ايرثاوس في التصوف الشرقي .

وقد تكون سنة ١٢٦٨ م بدء توجيه اهتمام ابن العبري الى الدراسة النسكية ، وقد يكون الدافع الى هذه الدراسة الشكوك التي ساورته في النساك ،

---

(١) قال البطريرك قرياقس (+ ٨١٧) « ان الكتاب المنحول ايرثاوس استاذ ديونيسيوس الأريوفاغي ؟ ليس له ، ويحسبه بعضهم من وضع ابن صوديلي المبتدع » . اما شابو وغيره من المستشرقين فلا يرون هذا الرأي . وقد نقل هذا الكتاب الى السريانية في القرن الخامس اجابة الى طالب اسمه فيلاّس ، وفسره بأسهاب البطريرك ثاودوسيوس الانطاكي (+ ٨٩٦) ولخص ابن العبري هذا التفسير بكتاب صغير الحجم يقع بـ ١٩٠ صفحة وذلك اجابة الى طلب بعض الرهبان . (انظر اللؤلؤ المنثور الصفحات ٢٢٥ و ٢٧٠ و ٤٣٢ و ٥٣١)

وطرق تصوفهم ، كما ذكر في كتاب (الحمامة) لذلك أراد التأكد من صحة شكوكه فدرس النساك الذين ذكر الكثيرين منهم في كتاب (الايثيقون) ، وهكذا مال الى حياة النسك . ومن المحتمل انه كان قد بلغ سناً لم تمكنه من تغيير اسلوب حياته والتخصص لحياة النسك . ففي كتاب (الحمامة) حيث يعلن انه خير للناسك ان لا يعتمد على الآخرين في أمر كسب عيشه ، بل ليعمل بيده ويعيل نفسه عليه ، كما فعل الآباء ، ويواصل كلامه المقرون بتواضع النساك فيقول : « وهنا لابد ان يعترف المؤلف بذنبه قائلا : أأعلم ولا أتعلم ؟ أأكتب ويبدي أمحو ما كتبته ؟ ! أأعظ ولا اتعظ بما اعظ به ؟ أو ارشد وأنا اتغاوى بالخطأ ؟) .

وفي القول (٧٩) من اقواله الالهامية يقول : (ان شمسي لا تزال مثلي في برج الجدي ، وان كانت بعيدة عن الجدي نحو الجنوب ، وحتى الآن لم تبلغ بدرجاتها قطبي ، فكم انا تائق مشتاق الى ان تشرق علي ، وتنفحني ولو نزراً يسيراً من نور الجميل الحقيقي .) . ولابد ان نلمس هنا صدق اعتراف ابن العبري ، فقد لوحظ ان كثيراً ما مارس رؤساء روحانيون حياة التقشف وهم يشغلون مناصب سامية .

في مقدمة كتاب (الحمامة) يشكو ابن العبري من افتقار العالم السرياني في زمانه الى معلم للنسك ، والغزالي (١) يقول ان متصوفي زمانه (لم يحصل لهم انس بالله) ، وان الاقطار خالية من (شيخ يقتدي به في علمه وسيرته

---

(١) هو ابو حامد محمد الغزالي (١٠٥٨ ـ ١١١١ م) ولد بالقرب من طوس (خراسان) وهو متصوف شهير ، وفيلسوف ، وفقيه . علّم في المدرسة النظامية في بغداد ونظامية نيسابور . ثم انصرف الى الحياة الصوفية انصرافاً كاملا . له في ذلك كتاب « احياء علوم الدين » بأربعة مجلدات في الفرائض الشرعية وايصال النفس الى ذرى محبة الله . وكتاب « المنقذ من الضلال » ورسالة بعنوان « ايها الولد » كتبها لأحد اصدقائه نصحاً له في الزهد والترغيب والترهيب .

وقد خلت البلاد منه الآن) . ان الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين المجلد الاول) وأبا طالب المكي (١) في كتابه (قوت القلوب ، المجلد الاول في باب وصف العلم وطريقة السلف) ، ينهجان الاسلوب ذاته الذي نهجه ابن العبري . وكذلك اسحق النينوي (٢) يقول : (بان الدخول في الاسرار النسكية نادر المنال ، وقد يحظى بنواله شخص واحد في كل جيل) .

وعلى الرغم من تواضع ابن العبري بخبرته الروحية النسكية ، فان الاقوال المائة التي كتبها ، وهي تؤلف القسم الأهم في كتابه (الحمامة) ، دعاها اقوالاً الهامية ، وقد وضعته في الرعيل الاول بين النساك ، كما اعطت كتاب (الحمامة) أهمية فاقت أهمية كتاب (الايثيقون) .

ويظهر ان عدد هـــذه الاقوال قد اختير بحسب التقليد الشرقي المعروف فان اوغريس (٣) الذي تعتبر مؤلفاته واحدة من مصادر التعليم لدى ابن العبري ،

---

(١) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي المكي ويكنى ابا طالب ، كان واعظاً ومتصوفاً زاهداً صاحب رياضات عنيفة ، وهو من اهل الجبل ـ بين بغداد وواسط ـ . سكن مكة فنسب اليها . وكتابه (قوت القلوب في معاملة المحبوب) يعد من كتب التصوف المهمة . مات ابو طالب سنة ٣٨٦ هجرية . (انظر كتاب الوفيات لأبن قنفذ القسنطيني تحقيق عادل نويهض طبعة بيروت ١٩٧١ عن شذرات الذهب » و « تاريخ بغداد » و « لسان الميزان » و « وفيات الاعيان » .

(٢) اسحق النينوي : ولد في مقاطعة بيت قطرايي (قطر) في الساحل الغربي من الخليج العربي في النصف الاول من القرن السابع الميلادي ، وترهب في دير بيت عابي ، وسقف على نينوى نحو سنة ٦٦٣م ثم ترك كرسيه بعد ستة أشهر مفضلاً عليه حياة الزهد والتفرغ للعبادة ، فتنسك في بيت هوزايي ، ومات طاعناً في السن في دير الربان شابور . له مؤلفات في الحياة الروحية تعد من كتب النسك المهمة جداً والتي تعود الرهبان السريان مطالعتها (انظر اللؤلؤ المنثور) ص١٥٥ و ٢٦٥ و (آداب اللغة الارامية للأب البرابونا ، طبعة بيروت ١٩٧١ ص٣٠١) .

(٣) اوغريس : ولد ببلدة ايبورا في آسيا الصغرى سنة ٣٤٥م وتتلمذ للقديسين باسيليوس الكبير وغريغوريوس النزينزي ، وذهب الى مصر سنة ٣٨٣م وترهب مدة ستين ثم قصد موضع (القلالي) حيث تتلمذ للقديس مقاريوس الاسكندري ، وقضى الخمسة عشرة سنة الباقية من حياته ناسكاً زاهداً . وتوفي حوالي سنة ٣٩٩م عرف عنه انه كان ذا ثقافة يونانية عالية ، وكان ينزل الى الاسكندرية ليفحم الفلاسفة اليونانيين (عن بستان الرهبان طبعة مطرانية بني سويف ـ مصر ١٩٦٨م ص ٤٩١)

له كتاب يحتوي على ستمائة عبارة ، وان الزمخشري (١) له (القلائد الذهبية) التي قوامها مائة قلادة عداً . كما ان في الآداب العربية مجموعات اخرى تتألف كل مجموعة منها من مائة جملة .

يحتوي كل باب من الابواب الثلاثة الاولى لكتاب (الحمامة) على عشرة فصول ، واما الباب الرابع فهو قصة تدرج المؤلف بالعلوم ، ويليها الاقوال الالهامية المائة الآنفة الذكر . ويتضح من ذلك ان ابن العبري يحتذي حذو الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين) الذي ينطوي على اربعة اقسام يضم كل واحد منها عشرة فصول .

وبين العلامتين الغزالي وابن العبري علاقة ادبية قوية وكلاهما يتفقان بوجود علم المعاملة ، وعلم المكاشفة ، وكلاهما يصرحان بوضوح انهما ينسجان على منوال القدامى السابقين ويطبعان على غرارهم .

ولابد ان نذكر بان كتاب (الايثيقون) يختلف عن كتاب (الحمامة) في الغاية فكتاب (الايثيقون) مثل كتاب (احياء علوم الدين) قد كتب لتنظيم الحياة الادبية والروحية للانسان . والكتابان يبحثان عن حياة الانسان ، التي ليست صلاة ومحبة وحسب ، بل هي ايضاً تجارة ، وزواج ، وغذاء للجسد ، وتعليم الاطفال اما كتاب (الحمامة) فهو مختص بالرهبان الذين ليس لديهم مرشد روحاني ، وهذا يظهر من تقسيم الكتاب كما يلي : الباب الاول : ـ تعليم

---

(١) هو ابو قاسم محمود بن عمر الزمخشري ولد في زمخشر سنة (١٠٧٥م) . امام عصره في اللغة والنحو والبيان والتفسير . كان معتزلي الاعتقاد . شديد الانكار على المتصوفة ، اكثر من التشنيع عليهم في بعض مؤلفاته . توفي سنة (١١٤٤م) له تصانيف اشهرها : (الكشاف) في تفسير القرآن الكريم . و (المفصل) في النحو ، و(الفائق) في غريب الحديث . و(اساس البلاغة) . انظر (الوفيات) لأبن قنفذ القسنطيني تحقيق عادل نويهض طبعة بيروت ١٩٧١ . عن (دائرة المعارف الاسلامية) و (وفيات الاعيان) و (وشذرات الذهب) و (لسان الميزان) و (طبقات المفسرين) .

العمل الجسدي الذي يتم في دار المبتدئين . الباب الثاني : ـ كيفية ممارسة السيرة الروحية في الصومعة . الباب الثالث : ـ شرح الاستقرار الروحي للحمامة المعزية . الباب الرابع : ـ قصة تدرج المؤلف بالعلوم وأقوال الهامية .

مصادر المعرفة النسكية لديه :

يخبرنا ابن العبري في مقدمة الاقوال الالهامية ، بان الينبوع الذي اغترف منه معرفته النسكية ، هي كتب : الاب اوغريس الذي يسميه بالكبير ، وبأبي العارفين وكبيرهم ، كما استقى من كتاب الدرج أو السلم لأياونيس كليماكس رئيس دير طورسينا الرومي الملكي (+ ٦٤٩م) ، وتصانيف ديونيسيوس الاريوباغي ، وايرثاوس الذي عثر على تفسير كتابه في التصوف سنة (١٢٦٨م) فعلق عليه ، ولخصه ، كما مر بنا آنفاً ، وكتاب (طريق الرهبنة) لاسحق النينوي ، وكتابات آباء برية الاسقيط وغيرهم . وهذا يعني انه قد ولج باب المعرفة الروحية دون ان يحتاج الى مرشد أو دليل ، لذلك فهو يكتب كتابه (الحمامة) للاشخاص الذين حالتهم تماثل الحالة التي كان هو عليها ، وهي حالة لا يستسيغها النساك ، وانهم جميعاً ينصحون المبتدئين بأتخاذ دليل لهم عندما يرغبون في نهج سبيل الزهد والتقشف والتصوف ، وكما يقول المتصوفون المسلمون « من لا دليل له دليله ابليس » ، اما كتاب (الحمامة) فله مكانته النسكية حيث قد وضع ليكون دليلاً للرهبان الذين يرغبون بالنسك « وليس لهم مرشد أو كان هذا في منأى عنهم » لذلك يصف لهم الكتاب الطرق والمقاصد ، والتجارب الروحية التي قد يكون ابن العبري قد مر بها . وفيه نلمس فلسفة التصوف لدى ابن العبري ، والمدرسة الصوفية التي ينسب اليها . وابن العبري الناسك تبدأ طريقته بالزهد البسيط ، ومن ثم يشع عليه نور المعرفة الروحية من كل جانب فيجد نفسه اخيراً في جو صوفي يقرب احياناً من وحدة الوجود .

ان دراستنا نظام التصوف لدى ابن العبري يقودنا حتماً الى التأمل العميق بالمفهوم النسكي الشرقي المسيحي الاسلامي . وبجولتنا هذه سنقف لحظات امام أهم موضوعاته مادة ، وأدقها حساً .

التأمل وعلم المعاملة :

عندما يتغرب الناسك عن العالم ، ويحبس نفسه في صومعة ، لا يقصد بذلك ممارسة اعمال صالحة وحسب ، بل ايضاً الوصول الى مطمح السعادة ، وهو لديه الاشتراك بالفكر الالهي والاتحاد به تعالى ، وهذا يدعى (الكشف) الذي يعطى من الله بالالهام ، ولا يحصل الا بالتأمل الروحي العميق ، ويسمى علم المعاملة ، ومن العبارات الروحية ، والاقوال الالهامية التي وضعها ابن العبري في كتاب (الحمامة) ، نعلم ان علم المعاملة لا يعني فقط ممارسة اعمال صالحة ، بل هو ايضاً بصورة اساسية ممارسة الاتصال بالله . ويقول الغزالي :ـ « .. ولنتجاوز هذه المعاني فانها خارجة عن علم المعاملة ولا يوصل الى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافي » (١) .

أسرار التصوف

يحجم العارفون عن نشر معظم تجاربهم النسكية التقشفية التي لا يجوز لهم ايداعها الكتب كما يروي الغزالي حيث يقول : « فاذا حصل قلبه مع الله ، انكشف له جلال الحضرة الربوبية ، وتجلى له الحق ، وظهر له من لطائف الله ما لا يجوز ان يوصف ، بل لا يحيط به الوصف اصلاً ، وأمثال هذه المعارف التي اليها الاشارة ، لا يجوز ان يشترك الناس فيها ولا يجوز ان يظهرها من انكشف

---

(١) احياء علوم الدين

له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له ، بل لو اشترك الناس فيها لخربت الدنيا » . ويشارك ابن العبري الغزالي في الرأي فيقول « . . . أما انت فانصت اليَّ ولا تنبس ببنت شفة ، ولا تسألني تفسيراً وايضاحاً (١) » .

فالمتصوفون قد سمعوا ما لم تسمع به أذن ، وشاهدوا ما لم ترهُ عين ، كما قال الرسول بولس عن رؤياه .

ويقول ابن العبري :ـ إن (الحمامة) « تهب نطقاً للناطقين . . كلامها يقرع كل اذن ولكن قليلين يستجيبون له ، تدعو كل انسان باسمه ، ولكن واحداً من الف يلبي نداءها (٢) » . وقال :ـ « أما الحياة الحقيقية فهي التي يرضع الكاملون لبنها من ثدي العناية الالهية مباشرة ، وليس لمعلمي الناموس ولا لكتبهم فيها سوى الأسم والصورة » (٣) .

الايمان

يرى ابن العبري افضل تحديد للايمان هو قول الرسول بولس « الايمان هو الثقة بما يرجى والايقان بأمور لا ترى » (٤) . ويختلف مفهوم الايمان لدى المتصوفين عنه لدى عامة الناس ، فيسميه ابن العبري بايمان الخيال وايمان الالهام (٥) ، وهذا الاخير هو أسمى درجة ومقاماً ، ولا يناله الا النساك ، وذلك بوساطة الاشراق من العلى بعد مشقة ، وتعب ، وطلب ، وانسحاق ، وزهادة . ولا يفهمه الانسان البسيط ، لذلك يقول الغزالي :

---

(١) القول (٨٠) من اقواله الالهامية في الباب الرابع من كتاب الحمامة

(٢) مقدمة كتاب (الحمامة)

(٣) الحمامة الباب الرابع ـ القول (٦٤)

(٤) الرسالة الى العبرانيين (١١ : ١)

(٥) الحمامة الباب الرابع القول (٢٠)

« ان أهل الانس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم اشياء هي كفر عند العامة » (١) . ويقول ابن العبري : « من لم يرن الى داخل باب قدس اقداس السحابة يته في مهمه الضلال اذ يعد نفسه بين المؤمنين ولئن اعترف بلسانه وآمن بقلبه » (٢) . ويعتبر بذلك ان النساك الذين بلغوا الكمال هم وحدهم قد نالوا ايمان الالهام حيث يذكر ما يلي : « وتنال الايمان وتعتمد بالنار والروح لا بالماء (٣) » .

الصـــوم :

يعتبر ابن العبري الصوم درجات ثلاثاً : فهو صوم عام فصوم خاص ، فصوم خاص للغاية . اما الصوم العام فهو الانقطاع التام عن الطعام ، واما الصوم الخاص فهو الانقطاع عن الطعام مقترناً بصوم الحواس عن الحركات المسببة للاثم . اما الصوم الخاص للغاية ، فهو صوم الكاملين الذين يقرنون الصوم عن الطعام وصوم الحواس بصوم النفس عن الافكار الرديئة ، باستئصال كل فكر دنيوي من اعماق القلب ، ولفظه لفظ النواة ابداً (٤) .

الصـــلاة :

والصلاة هي احدى الوسائل الجبارة الموصلة الى الهدف المنشود من اعمال النسك ، الا وهو الاتحاد بالله . يحددها مار اسحق النينوي بقوله : « الصلاة هي اماتة ميول الارادة من الحياة الجسدية » ويقول الأب اوغريس : « اجتهد ان تجعل عقلك في الصلاة اصم لا ينطق ، وهكذا يمكنك ان تصلي » .

---

(١) احياء علوم الدين
(٢) الحمامة الباب الرابع القول (١٧)
(٣) فيه القول (١٩)
(٤) فيه الباب الثاني الفصل السادس

ويتساءل ابن العبري قائلا : « كيف يحاول الفكر ان يخاطب بالصلاة ذلك المتعالي عن كل حس دون ان يجمع من التشتيت » انه ولئن يصعب على المرء جمع شتات الفكر باديء بدء ، ولكن بعد التدريب الصحيح ، وتذوق حلاوة الصلاة ، يسهل خزنه في اهراء القلب ، فيخاطب ربه بصورة عجيبة (١) » .

الحج المقدس،

ان نظرية النساك بالحج يوضحها ابن العبري في موضوع الغربة ، حيث يقول : « استأذن تلميذ من شيخه للذهاب الى اورشليم ، فاجابه : انك تضل يا هذا ، فالجميع يحاولون الصعود الى اورشليم السماوية ، اما انت فالى اورشليم الارضية ، وقد قال السيد المسيح « انه تأتي ساعة ، لا في هذا الجبل ، ولا في اورشليم تسجدون للاب . الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا » (٢) فأمكث اذن في صومعتك ، واجتهد ان ترى في داخلك من هو قريب من كل انسان (٣) . وهذه النظرية اساس في التصوف ، ونجدها ايضاً لدى القشيري (٤) حيث يذكر قول محمد بن الفادي القائل : اعجب من اولئك الذين يبحثون عن هيكل الله في هذه الدنيا ، لماذا لا يبحثون عنه في قلوبهم بالصلاة والاستغراق بالتأمل الروحي ... اذا كانوا ملزمين لزيارة حجرة مرة واحدة في السنة ، فالتأكيد انهم اكثر التزاماً لزيارة معبد القلب حيث يمكن رؤياه ثلاثمائة وستين مرة نهاراً وليلاً . . » .

---

(١) الحمامة ـ الباب الثاني ـ الفصل الرابع

(٢) انجيل يوحنا (٤ : ٢١ و ٢٤)

(٣) الحمامة الباب الثاني الفصل الثامن

(٤) هو ابو القاسم القشيري ، فقيه ومتصوف أصله من ناحية استوا من العرب الذين قدموا خراسان ، توفي ابوه وهو صغير فحضر الى نيسابور ، وبها نشأ وتعلم ومات سنة ١٠٧٤م اتبع الاشعريين في التصوف . له تصانيف : (الرسالة القشيرية) و (التيسير في علم التفسير) و (لطائف الاشارات) . انظر (الوفيات ص٢٥٢) و (وفيات الاعيان) و (شذرات الذهب) و (تاريخ بغداد) .

معرفة الله :

البون شاسع بين معرفة العامة لله ومعرفة النساك له . ويشرح ابن العبري ذلك حيث يقول « ان عامة الناس يستدلون على وجود الخالق من مخلوقاته اما العلماء ، فلديهم معرفة افضل يحصلون عليها بنقاء الافكار ، واضعاف الجسد ، واغلاق نوافذ الحواس ، وتحطيم القيود ، فاذا ما استنار مخدع قلبهم بهذه المعرفة ، فانه يتصور ملكوت الله فيه ، ويكون هذا الملكوت داخلهم ، وحينئذ لا يحتاجون الى ان يطلبوه في « هذا الجبل أو في اورشليم (١) » .

اذا كان المؤمن مقتنعاً بوجود العالم الثاني ، فالأفضل له ان لا يألو جهداً للحصول عليه . اما الناسك فعليه ان يطمح للحصول على الله وحده ، لذلك نجد ابن العبري ينصح لطالب النسك ، قائلا : « نقِ مرآة عقلك من الادناس فتريك اشكال المملكتين والسبل المؤدية الى السماء ، وهي ايضاً توصلك الى الله » (٢) . ويقول ايضاً « ان كنت تهتم بالاطلاع على الاسرار الخفية ، ابغض العالمين (الارضي والسماوي) « ودع الموتى يدفنون موتاهم » (٣) ، واطلب الحي السرمدي وحده ، واذا ما تعبت في طلبه الى الابد فستحيا الى ابد الابدين (٤) فبناء على ذلك فالجنة وسعادتها ليستا موضع طموح الناسك ، وأمله ورجائه ، انما الله الواحد القيوم وحده هو ضالته الوحيدة المنشودة .

لا يعتبر ابن العبري التأمل نقياً خالصاً ما لم يكن الهدف المنشود منه الله تعالى . ويصرح بان الرغبة في مسرات الفردوس انما تنشأ عن التفكير المضطرب .

---

(١) الحمامة ـ الباب الرابع ـ القولان (٧٣و٧٤)
(٢) فيه القول (٥٨)
(٣) انجيل متى (٨ : ٢٢)
(٤) الحمامة الباب الرابع القول (٨٣)

وهو يقسم الزهاد بالنسبة الى هدفهم المنشود الى : (درجات ثلاث : سفلى ، ووسطى ، وعليا . فالسفلى هي درجة الذين يزهدون عن اللذة خوفاً من العذاب العتيد . واما الوسطى فهي درجة الذين يرفضون اللذة الزمنيـــة طمعاً في نعيم الفردوس ، اما العليا فهي درجـــة الذين مطلبهم هو الرب الصالح وحـــده ، ولذلك يشيحون بوجوههم عما سواه . ويكيل العلماء المدح لهذه الغاية .) (١). وللغزالي الرأي نفسه حيث يقول : (من لا يرغب بأي شيء سوى الله ، حتى لا يرغب بالفردوس ، متجنباً محبـــة أي شيء يبعده عن الله ، فهو المتنسك الكامل) وقال ايضاً :ـ (لما قيل لرابعة ما تقولين في الجنـــة فقالت الجار ثم الدار فبينت انه ليس في قلبها التفات الى الجنـــة بل الى رب الجنـــة) (٢) . ويتبع القشيري ايضاً الرأي نفسه حيث يقول : « علامة العارف ان يكون فارغاً من الدنيا والآخرة » .

فمفهوم هذا النوع من الزهد بالدنيا والآخرة ، لدى ابن العبري ، نسميه (بالثابت) ؛ الذي لا سبيل للشك فيه وطبيعة هذا الزهـد بالذات تظهر ايضاً في اولئك الذين تخطوا مراحل النسك الاولى وبلغوا قمة الحالة الروحية ويسمى كل منهم (بالعارف) ، وتسمى حالتهم المعرفة الروحية ، والعارف كما يعرفه اوغريس « هو بمثابة الملح للنجسين ونور للانقياء » ويعتـبر ابن العبري معلمي الكنيسة وفلاسفتها ولاهوتييها ادنى منزلة من الانبياء والعارفـين ، لأن مصـــدر معرفة هؤلاء انما هو الوحي ، وهو معرفة من نوع نبوي .

كثيراً ما يسمى النسك بالمعرفة الروحيـة ، وتطلق صفة (العارف) على من بلغ الدرجة العليا في سلمه . ويسمي ابن العبري كتب النسك بكتب المعرفة

---

(١) الحمامة الباب الاول الفصل الثالث

(٢) احياء علوم الدين الجزء الرابع

الروحية . ويقول :ـ « فكم انا تائق مشتاق الى ان تشرق علي (شمسي) وتنفحني ولو نزراً يسيراً من نور الجميل الحقيقي . لكي لا اسجد بعد الآن لمن لا اعرفه بل اسجد بالروح والحق لمن اعرفه » (١) ويقول ايضاً في موضوع لذة المعرفة ما يلي :ـ « ان اللذة التي تنتج عن معرفة رب الكائنات والهها تفوق كل اللذات » (٢) ويقول ابن عطاء الله (٣) :ـ « ان معرفة الله هي غاية المطلوب » ويقول الغزالي : « ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله وصفاته وملائكته وملكوت السموات والارض ، فلا ينبغي ان تشك في ان الاطلاع على اسرار الربوبية والعلم بترتيب الامور الالهية المحيطة بكل الموجودات هو اعلى انواع المعارف والاطلاعات والذها واطيبها » (٤) .

وهذه المعرفة هي ليست من النوع الفكري أي انها تسمو عن معرفتنا للاشياء المادية التي تقع تحت حواسنا ، ولذلك يطلق عليها اللاهوتيون والنساك صفة (الالهام) ويسمونها (علم الله) ، والصفة غير الفكرية لمعرفة الله . وهذه هي التي جعلت ابن العبري ناسكا صوفياً لا يهتم بامر الخلافات العقائدية ويرفض المماحكات اللاهوتية ، وهو هو ذلك اللاهوتي القدير الذي وضع الموسوعة اللاهوتية الموسومة بـ(منارة الاقداس) ومختصراً في اللاهوت باسم (الاشعة) . فرأيه ناسكاً يذكره في مقدمة الاقوال الالهامية المئة مرشداً النساك كافة ، وقد ورثوا عن أجدادهم دستور الايمان النيقاوي ، ان يتمسكوا بهذا الدستور ، دون الدخول بالمماحكات والمجادلات التي لا طائل تحتها . وفي موضع آخر يحذر الذين يحاولون

---

(١) الحملة ـ الباب الرابع القول (٧٩)

(٢) فيه الباب الثالث الفصل السادس

(٣) ابن عطا الله الاسكندري الشاذلي من اشهر صوفي زمانه ، الف كتاباً في التصوف بأسم (الحكم العطائية) ، وله (تاج العروس وقمع النفوس) في التصوف ايضاً . توفي في القاهرة سنة (١٣٠٩م)

(٤) احياء علوم الدين الجزء الرابع .

فهم الله بالقياس المنطقي بقوله « تعود ان تصدق كل ما تسمعه من انسان صادق بكلامه ، ولا تبحث عن أصـــل الكلام بالمقايسة ، وان كنت لا تعرف حقيقته ، وبهذا الأمر يكون الايمان صالحاً لان يبطل فعل السموم وذلك بوساطة الفارقليط روح الحق ويذكرك بكل الامور ويعلمك اياها) وقال أيضاً (اذا ما أرحت عقلك من درس الابحاث العويصة المقترنة بالتعقيدات القياسية ، والتزمت حياة الهدوء والصمت مع ممارسة أعمال الاستقامة فاصطبر ولا تمـــل الدأب في سيرك لعل شمسك تشرق ومساءك يضيء ويكشف لك عن جمالك ويحررك من عبودية الزمان والمكان) (١) ويقول أيضاً (ان الله هو ضابط الكل فكيف يحصره العقل ؟ بينما الشيء القابل للحصر (ذاته) لا يمكنه ان يضبط الا جزءاً من الحاصر لا كله) . (ما دمت تروم ان تعرف الله بوســاطة الأدلة والبراهين والشهادات ، فانت تضرب على حديد بارد ، وليس فيك بعد من الايمان بقدر حبة خردل) (٢) .

ولا يقف إبن العبري عند هذا القدر في تعريف المعرفة بل يتعداهـا الى محبة الله التي يعتبرها نتيجة حتمية للمعرفة فيقول : ـ « ان معرفة الله سبب محبته وبالنسبة الى زيادة هذه المعرفة ونقصانها تزيد أو تنقص هذه المحبة » (٣) ويقول الغزالي : ـ « السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله واتساعها ، واستيلاؤهـا على القلب ، وذلك بعد تطهير القلب من جميع شـواغل الدنيا وعلائقها يجري مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش ، ثم يتولد من هذا البذر

---

(١) الحمامة الباب الرابع القولان (٩٠ و ٩٥)

(٢) فيه القولان (٩ و ١٠) .

شجرة المحبة والمعرفة) ويقول أيضاً : (والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة . لانه لا يحب الله خاصة الا من عرفه . . فمن عرف الله تعالى أحبه » (١)

وهنا يظهر لنا ابن العبري والغزالي ، وقد اتحدت أفكارهما في الاساس بالتصوف ، يعتمدان على المعرفة التقليدية القديمة ، فقد سبق اوغريس وربط المحبة بالمعرفة ، كما ان اسحق النينوي يقول « المحبة أحلى من الحياة ، ومعرفة الله التي منها ولدت المحبة هي أحلى من شهد العسل .. ان المحبة هي بنت المعرفة) .

ان الغاية التي ينشدها النساك من المعرفة الروحية والمحبة هي واحدة ، حيث ان كلتيهما متلازمتان ، فالمحبة نتيجة مباشرة للمعرفة ، والمعرفة أم المحبة .

الادراك

والآن أمامنا نوع آخر من التعبير عن الحالة التي قد يصل اليها الناسك في معرفة المواهب الروحية الا وهو ادراك الله تعالى نفسه ، وهذه الحالة هي المرحلة النهائية والغاية القصوى في سعيه .

يقول ابن العبري (يجب ان تكون السكنى في الصومعة بادراك وتمييز ، لا عن تقليد كما يفعل الكثيرون ممن يحبسون أنفسهم دون ما غاية يضمرونها في قرارة نفوسهم أو هدف يضعونه نصب أعينهم يصوبون اليه سهام مشقة طريقهم ، وهذا الهدف هو انتظار موهبة انارة العقل تأتيهم من الرب ، وقابلية مشاهدة الروحانيين بطبيعتهم ، ومعاشرتهم) (٢) .

ويذكر ابن العبري : « ان هذه الأمور تحدث في المرحلة الوسطى من المحبة وان قبول الالهام يجاري أدراك الأمور الروحية » (٣) . أما الفرق ما بين

---

(١) احياء علوم الدين الجزء الرابع .

(٢) الحمامة الباب الثاني الفصل الاول .

(٣) الايثيقون المقالة الرابعة الباب الرابع عشر الفصل الثالث عشر .

المبتدىء وغير المبتدىء فيما يخص هذه الامور الروحية ، فهو كالفرق ما بين رؤية الشيء والسماع عنه . وهذا واضح أيضاً من قول ابن العبري القائل (يرفض بعض المعلمين المتحرين بعلوم الكتاب المقدس وتفسيره ، ان يتعلموا السير في طريق الملكوت على يد عارفين غير متضلعين بفنونهم ، بيد أن هؤلاء المعلمين لا يسلمون ولا يفقهون كون معرفتهم ، وان كانوا متضلعين بها ، إن هي الا معرفة نقلية ، وأما معرفة العارفين ، وان كانوا بسطاء فهي معرفة اختبارية)(١) وفي ختام كتاب (الحمامة) يصرح ابن العبري قائلاً : (ان هذه الفصول انما تفيد من كان خبيراً بمعرفة الأمور الالهية والبشرية معاً ، وهو يتوق ان يرى عن طريق الاعلانات كل ما فهمه بالعلم ، ولكن من ليس له هذه الرغبة فليضاعف دراسته لهذا الكتاب لا بالقراءة المضطربة (المشوشة) بل عن ادراك وانتباه)(٢) . هذا القول يأتي بنا ثانية الى موضوع الادراك انه هنا يعطي وصفاً مختصراً عنه ورأي النساك أنفسهم فيه . ويشير مار أسحق النينوي الى ذلك مراراً عديدة فيقول : (عن طريق هدوء التصورات ترتفع الروح الى نقاء الفكر . وبالفكر النقي يصل الانسان الى رؤية الأمور الخفية ، ان التأمل في الالهيات ، هو الرؤية (الحقيقية) . ويقول أيضاً (تعرف ملكوت السماء بالتأمل الروحي) كما ان تعريف اوغريس للتأمل الروحي مطابق لذلك حيث يقول : (انه معرفة روحية لكل ما كان وما سيكون . وهذه المعرفة تثقف العقل وتقر به الى كمال الصورة التي خلق عليها) . وهذا الرأي يأخذ به الغزالي أيضاً حيث يورد بيتاً من الشعر العربي لمتصوف يقايس الفرق ما بين المعرفة العادية البسيطة الصادرة عن السمع ومعرفة النساك الناتجة عن المشاهدة فيقول :

---

(١) الحمامة القول (٦٨)

(٢) الحمامة الباب الرابع القول (٩٨) .

خذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يُغنيك عن زحل

وهنا يسوقنا البحث الى علم المكاشفة الذي يعتبره الغزالي ، الرؤية السامية غير المسموح التكلم عنها ويقول : (فنعني بعلم المكاشفة ان يرتفع الغطاء حتى تتضح له جلية الحق في هذه الأمور ، اتضاحاً يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه) . أما أبو طالب المكي أحد أسلاف الغزالي فقد ميّز ما بين معرفة السمع والرؤيا بقوله : (ان المعرفة على مقامين معرفة سمع ومعرفة عيان . فأثبت الرؤية للقلب بالعين ، فرؤية القلب هو اليقين . . فاذا كشف غطاء العين ، شهدت معاني الصفات بانوارها وهو مزيد نور اليقين الذي هو كمال الايمان) .

رؤية الله :

ان رؤية الأمور الروحية تؤدي الى رؤية الله ، ورؤية الله هي غاية التدريب النسكي الصوفي وذروته ، وتأتي عن طريق الالهام وهو وحي مما هو خاص بالله . والغاية منه رؤية الله ، لأن المعرفة الروحية هي محبة الله ومشاهدته ، وهذه تكتسب بالتعمق في العلم الدقيق ، علم تطهير الضمير ، الذي غايته رؤية الله . ويقول ابن العبري : « اذا كانت رؤية الله تنيل الحياة الحقة ، فعدم رؤيته تنتج الموت المرير » (١) . ويقول ايضاً « تحصل رؤية الله باغماض الحواس وفتح كوى القلب وكشف الحجاب عن اعين الضمير ، وهذا هو ما قيل عنه « سد النوافذ ليستنير المنزل » (٢) ان المشاهدة يمكن ان تحدث في المرحلة العليا لمناجاة الله ، ويدعو ابن العبري ذلك « بالسحابة » ، اسوة بسائر النساك فيقول « يحصل العقل ، في داخل السحابة ، برؤية الجميل ، على لذة لاتوصف . وقد يحصل على هذه اللذة خارجاً عن السحابة ، ولكنها تكون لذة السامع عن

---

(١) الايثيون المقالة الأولى الباب الثاني الفصل الثامن

(٢) الحماة ـ القول (١١)

جمال الجميل لا الناظر اليه . » (١) . وهنا يبرز ثانية الفرق مابين الرؤية والسمع ، ونجد ذلك واضحاً لدى ابن العبري ايضاً حيث يقول : « كما ان الخفاش لا يرى الشمس ابداً اما الانسان وان شاهد نورها بحسه البصري فلا يراها كما هي ، وهكذا ايضاً المتأمل في الالهيات انما يسمع عن العلي غير المحدود ولكنه لا يراه . والعارف يرى جزءاً من ابجاد العلي غير المحدودة لا كلها » (٢)

الرؤية والموت :

ان مسألة رؤية الله ، أمر خطير لا يمكن شرحه دائماً بالصيغة ذاتها . لذلك يقول ابن العبري - « انه من الخطأ القول بان العقل عندما يتحرر من عبودية الجسد يرى الله العلي المسجود له ، كما هو » (٣) ويقول ايضاً :- « ان الرؤية الحقيقية لله تكون بعد مغادرة هذه الحياة فعلى الناسك ان يتشبه بالرسول بولس الذي كان مشتاقاً للرحيل ليكون مع المسيح » (٤) ويذكر ابن العبري في موضع ثان ما يلي : « على حد قول الله لموسى لا يمكنك ان ترى وجهي لأنه لا يراني حي ويعيش ، أي بعد ان تتخلص من الجسد فحينئذ تراني » (٥) .

ويبحث الغزالي عن رؤية الله فيدعوها رؤية وجه الله ، ويصرح بان مسرات الفردوس ليست هدف المتصوفين الحقيقيين ، اذ هم : « ولا يطلبون الا لذة النظر الى وجه الله الكريم فهي غاية السعادات ونهاية اللذات »(٦)

---

(١) فيه القول (١٥)

(٢) الحمامة القول (٨٩) .

(٣) فيه القول (٨٨) .

(٤) الاثيقون المقالة الرابعة الباب الخامس عشر الفصل العاشر .

(٥) فيه المقالة الرابعة الباب الخامس عشر الفصل الخامس .

(٦) احياء علوم الدين .

ان آراء الغزالي وابن العبري وغيرهما من المتصوفين ، وجدت عند عدة مؤلفين من النساك المسيحيين والمسلمين معاً ، فالقشيري مثلاً يجيب على السؤال بقوله : « فان قيل هل تجوز رؤية الله بالابصار اليوم في الدنيا على جهة الكرامة فالجواب عنه ان الاقوى فيه انه لا يجوز لحصول الاجماع عليه » . وان ابن عطاء الله يفكر كالغزالي وابن العبري قائلا : « ومن اعلام المحبة حب لقاء الحبيب على العيان ، والكشف في دار السلام ، ومحل القرب ، واتمام النعيم بالنظر الى وجهه الكريم » . فالمتصوفون يرون امجاد الله في هذا العالم ، ولكن سيرونه بعدئذ وجهاً لوجه في العالم الآتي .

الرؤية في الأديان السماوية :

يجب ان لا يغيب عن بالنا بان السؤال المهم عما اذا كان بأمكان الانسان رؤية الله هنا أو في العالم الآتي ، له تاريخ ضمن الأديان السامية ، فقد جاء في سفر الخروج ان موسى قبل مغادرته سينا ، أبدى رغبته بمشاهدة الله ، فجاءه الجواب « لا تقدر ان ترى وجهي لأن الانسان لا يراني ويعيش » وبينما كان موسى هناك اجتاز مجد الرب امامه فنظر وراءه واما وجهه فلم يره (١) . وجاء في سفر الخروج ايضاً : « ثم صعد موسى وهرون وناداب وابيهو وسبعون من شيوخ اسرائيل ورأوا اله اسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الازرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة . ولكنه لم يمد يده الى اشراف بني اسرائيل . فرأوا الله وأكلوا وشربوا » (٢) وجاء في سفر العدد قول الرب لهرون ومريم : فقال اسمعا كلامي ، ان كان منكم نبي للرب فبالرؤيا استعلن له في الحلم أكلمه ، واما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين

---

(١) سفر الخروج (٣٣ : ٢٠) .
(٢) سفر الخروج (٢٤ : ٩ ـ ١١)

في كل بيتي فماً لفم وعياناً أتكلم معه لا بالالغاز . وشبه الرب بيعاين » (١) وقال اشعيا النبي « رأيت السيد جالساً على كرسي عال ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل » (٢)

اما في المسيحية فقد قال السيد المسيح « انا في الآب والآب فيّ » و « الذي رآني فقد رأى الاب » (٣) ووعد المؤمنين به ان يكونوا معه في الفردوس ، وانه سيشرب مع رسله من نتاج الكرمة (٤) . ويقول الرسول بولس « فاننا ننظر الآن في مرآة في لغز ولكن حينئذ وجهاً لوجه ، الآن اعرف بعض المعرفة لكن حينئذ سأعرف كما عرفت » (٥) .

أما في الاسلام ، فقد قال البخاري « ان الناس قالوا يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ، قال : هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ قالوا لا يارسول الله ، قال : فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحابة ؟ قالوا لا قال فانكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة » (٦) .

الجسد والنفس :

يطلق المتصوفون على النفس اسماء عديدة فيسمونها الروح ، والعقل ، والقلب (٧) ، ويوضح ابن العبري نظرة التصوف الى علاقة الجسد بالنفس فيقول : « النفس في الجسد كأنها أسيرة في خيمة مغلقة ، وكما ان الخيمة تهب

(١) سفر العدد (١٢ : ٦)
(٢) سفر اشعيا (٦ : ١)
(٣) انجيل يوحنا (١٤ : ٨ ـ ١٢)
(٤) انجيل متى (٢٦ : ٢٩)
(٥) الرسالة الاولى الى كورنثوس (١٣ : ١٢)
(٦) مواقيت الصلاة
(٧) الايثيقون المقالة الثالثة الباب الاول الفصل الاول

عليها ريح عاصفة احياناً فتمزقها ، ويظهر كل ما فيهـا وما يحيط بها بوضوح وجلاء ، وتارة يطغى عليها الزمن فتتفتح مسامها ويظهر سداها ولحمتها فيتسرب اليها النور ولكن بطريقة ضئيلة ، وأحياناً وان لم تتمزق ولم تتفتح مسامها الا ان الساكن فيها يفتح له كوة وينظر الى الخارج ، هكذا الانبياء والرسل بهبوب الروح القدس عليهم تمزقت خيمة اجسـامهم أمام النفس العاقلة ، والزهـاد بواسطة رقة اجسادهم وشفوفها تتجدد فيهم الروح المستقيمة ، والفلاسفة تفتحت امامهم كوى النفس بالاقيسة المنطقية المدركة للمواضيع ، وملافنة الكنيسة بتفتح كوى العقل وترويض الجسد انبلجت امامهم انوار معرفة العالم الروحي الحقيقي » (١)

ويسمي ابن العبري الجسد « مطية النفس » (٢) و « حذاء النفس » (٣) و « موضع عبوديتها » (٤) وان شئت فقل سجنها .

الطـهارة :

الطهارة لدى ابن العبري هي : « ان يتسامى الانسان ويستغرق في معرفة الله ليستضيء بها ويتوهج بعد تطهير القلب من الاهواء الرديئة ، لان معرفة الله في النفس النقية تشبه الزرع الجيد الذي يلقى في أرض صالحة ومن زرع المعرفة هذا تنبت المحبة وتنمو » (٥) . ويقول أيضاً : « لدى العلماء معرفة أخرى أفضل يحصل عليها بنقاء الافكار ، واضعاف الجسد ، واغلاق نوافذ الحواس وتحطيم القيود » (٦) ويقول أيضاً : ـ « اعلم ان القلب لا يتنقى بسهولة ، بل بجهد

---

(١) الايثيقون ، المقالة الثالثة الباب الاول الفصل التاسع

(٢) الحمامة الباب الرابع القول (٧٠)

(٣) فيه القول (١٤)

(٤) فيه القول (٨٨) .

(٥) الايثيقون المقالة الرابعة الباب الخامس عشر الفصل السادس

(٦) الحمامة ، الباب الرابع ، القول (٧٤)

عظيم ، وجهاد شاق ليستأصل الشر من النفس »(١) ويقول أبو طالب المكي : « وصفاء القلب يرفعه مقامات في مشاهدة العين حتى لا يخطر بقلبه إلا خاطر حق . » .

سبل التقشف :

ان تمارين التقشف يحصرها ابن العبري باربعة أمور هامة هي : « الخلوة ، والصمت ، والجوع ، والسهر . ففي الخلوة تتلاشى كل النزوات المقلقة ، وبالصمت تموت عن ذاكرته كل الاحاديث الباطلة ، وبالجوع يتطهر العقل ، وبالسهر تزول كل الاوضار التي تحجب بصيرة النفس . فاذا نال الراهب هذه الفضائل كلها سار في طريق ربه وتعلقت أبصاره في اللانهاية منتظراً العون والايد من لدن الله ، فان أستمر بذلك يستسلم لقول النبي ارميا : « أما انا فلم أعتزل عن ان أكون راعياً وراءك »(٢) . »(٣) .

كل هذه التمارين التقشفية النسكية كثيراً ما ترد أو تظهر رمزياً بالعبارة التي يذكرها ابن العبري وهي « سد النوافذ ليستنير المنزل »(٤) .

الانارة :

انارة باطن الانسان هي ثمرة التصوف ، وان الهدف من ملازمة الصومعة انما هو انتظار عطية الله الا وهي انارة العقل وقابلية رؤية الامور الروحية في طبيعتها . ويقول اسحق النينوي : « اذا اندفعت بنفسك نحو ممارسة الصلاة التي

---

(١) الايثيقون المقالة الثالثة الباب الثاني الفصل الرابع .
(٢) نبوة ارميا (١٧ : ١٦)
(٣) الايثيقون المقالة الثالثة الباب الثاني الفصل التاسع .
(٤) الحمامة الباب الرابع ـ القول (١١)

تجعل الفكر مشرقاً ، وتواصل السهر للحصول على عقل نير ، عليك ان تخفي نفسك عن رؤية أمور العالم وتُلزمها بالصمت مطلقاً »

ويعتبر الغزالي الصوم والسهر وسيلتين للبلوغ الى انارة القلب . ويدعو الانارة « النور الباطن » و « نور البصيرة » و « تنوير القلب واشراقه » ويقول « ونور العلم اذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء »(١) . ويقول ابن العبري « لدى العلماء معرفة أخرى أفضل ، يحصل عليها بنقاء الافكار ، واضعاف الجسد ، واغلاق نوافذ الحواس ، وتحطيم القيود فاذا ما استنار مخدع قلبهم بهذه المعرفة ، يتصور ملكوت الله فيه ويكون هذا الملكوت داخلهم ، وحينئذ لا يحتاجون الى ان يطلبوه في « هذا الجبل أو في اورشليم »(٢) .

الله نور :

هنا وصلنا الى فكرة أخرى مهمة لدى المتصوفين الا وهي ايمانهم على سبيل التشبيه البليغ « ان الله نور » وهذه الفكرة واسعة الانتشار في الاديان ، فكثيراً ما نجد في المزامير تعابير عن « يهوه اله النور » ، « ووجه يهوه المشرق المنير »(٣) وفي العهد الجديد سمى السيد المسيح نفسه نور العالم (٤) وافراهاط السرياني (٥) يدعو الله « نوراً من نور » ، كما نجد لدى المتصوفين فكرة انارة القلب فيقول ابن عطاء الله « انت الذي أشرقت الأنوار في قلوب اوليائك

---

(١) احياء علوم الدين .

(٢) الحملة ـ الباب الرابع القول (٧٤)

(٣) سفر المزامير (٦:٤ و ٣:٤٤ و ١٥:٨٩ و ١:٢٧ و ٩:٣٦ و ٣:٤٣ و ١٣:٤ و ٢:١٠٤)

(٤) انجيل يوحنا (١٢:٨ و ٥:٩ و ١:٧ و ٩:٣ و ٣٥:١٢)

(٥) ولد أفراهاط مجوسياً في بعض بلاد فارس وتنصر وترهب وتميز بالورع وأمعن في درس الكتاب المقدس فألف بين سنة ٣٣٧ ـ ٣٤٦ كتاباً كبيراً أسماه (البينات) حوى ٢٣ مقالاً في الايمان والمحبة والصوم والصلاة والرهبان وغيرها . (انظر اللؤلؤ المنثور ص ٢٤٢) .

حتى عرفوك » . ولدى أبي طالب تعبير يقول فيه « نور شعاع وجه الذات . » . وذلك النور الذي به يستنير المتصوفون انه نور السماء . ويقول ابن عطاء الله « نور مستودع في القلوب مدده من النور الوارد من خزائن الغيوب » .

ولا بد ان نذكر ان الاهمية التي أعطيت للنور اعطيت للنار أيضاً ، وان النور ، والنار ، والانارة أو الاشتعال بالنار ، هي تعابير متبادلة واردة في ادب المتصوفين .

المظهر الجسدي للصلاة الروحي :

عقد ابن العبري فصلاً في كتاب الايشيقون بعنوان « الفرح الحاصل للكاملين وقت الصلاة » ، يظهر منه انه مطابق تماماً لما قد كتبه قبله اسحق النينوي ، قال ابن العبري : « يحدثنا العارفون عن الفرح الذي تولده النعمة في القلب الطاهر ابان الصلاة ، وما يرافقه من الرؤى والمواهب العظيمة ، ان الانسان لا يمكنه وصف هذا الفرح ، فتجده أحياناً ينبع من القلب عفواً بدون ما سبب واضح ، يثيره الروح ، فيسقط ذلك الانسان أرضاً مصعوقاً ، أو هو بحكم المصعوق ، فاذا رأى أحدهم هذا الناسك الكامل ، أو سمع صوته يخاله ممسوساً . وأحياناً يرتمي الناسك جاثياً على ركبتيه اثناء الصلاة ، ويداه ممدوتان نحو السماء وعيناه تتطلعان إلى الصليب وكل افكاره متعلقة بالله ، وهو يصلي ، فيشعر في تلك اللحظة ان لذة روحية لا توصف تنبع في قلبه ، فترتعش جوارحه ، وتخشع عيناه ، ويلتصق وجهه بالارض ، وتزدحم أفكاره ، ولا تستطيع ركبتاه الوقوف على الارض ، تجاه تيار النعمة التي غشيت قلبه . . تأمل ايها الانسان بما تقرأ ، هل يمكن ادراك هذه الحال بمجرد قراءة هذه السطور ؟ وهل بمجرد القراءة تصل حلاوة الشهد الى فم القاريء ؟ فاذا لم تجاهد لن تجد ، وان لم تقرع بحرارة وتسهر بالصلاة أمام الباب طويلاً لن تجاب »(١) .

(١) الايشيقون المقالة الاولى الباب الاول الفصل الخامس

أما حالة المتصوف في المرحلة الثانية للمحبة فيصفها ابن العبري قائلاً : « تحدث للعارف حالة الاختطاف خاصة في وقت الصلاة ، وهذه الحالة العجيبة تقطع الصلاة مرات عديدة . فلا يعي العارف ، فتتعذب روحه بين الميول الثائرة ، ويزداد سعير محبة ربه في قلبه كالنار في الاتون المتقد سبعة أضعاف ، وتضطرم نفسه وينهدّ حياه . ويسقط أرضاً مغشيا عليه ثم ينهض ويستعد لرؤية جديدة فلا تنقطع عنه ، بل تظهر له مُدداً اطول فأطول ، يوماً بعد يوم ، ويتألق العقل في رؤية الخفايا الالهية ، ويتسامى رويداً رويداً ، الى معرفة أسرار الالوهية (١) .

أما في كتاب الحمامة فيصف ابن العبري هذه الحالة قائلا : « حدثني أحد العارفين الطوباويين ، قال : عندما كنت مبتدئاً تراءى امامي النور الذي يستحيل الدنو اليه ، فارتعشت مفاصلي ، وسها عني العقل ، وبت اشابه من ركب فحلاً هائجاً يجري بأقصى طاقته ، ولا يعلم راكبه ما اذا كان يطير في الفضاء بالجسد أم انه يحلق دونه ، ولكن متى هدأ الفحل من هيجانه رجع الي عقلي ، وثاب الي رشدي ، وأخذ لساني يلجلج ويقول : لقد صار ما صار ولا أقول ما صار ، اما انت فأنصت الي ولا تنبس ببنت شفه ، ولا تسألني تفسيراً وايضاحاً ! .. وحدثني هذا العارف نفسه ايضاً قائلاً : عندما اشتد حبلي ، ازداد في داخلي لهيب محبتي لسيدي ، المحبة التي كم من مرة حالت دون اتمام خدمتي ، انما كنت اسقط على وجهي أرضاً ، واشابه الاموات ، ويكاد جسدي يحترق وتنهداتي تتزايد ، وقلبي يناجيني قائلا : وحتّامَ هذا البكاء ومجاهدة النفس حتامه ؟ ! وماذا ينفع ذكر المحبوب اذا كان المحب حبيس قفص الفراق ؟ (٢) .

---

(١) الايضون المقالة الرابعة ، الباب الخامس عشر .

(٢) الحمامة - الباب الرابع - القولان (٨٠ و ٨١)

عندما يستهدف الكامل الى حالة الانخطاف يشتعل كما بنار من اخمص قدمه حتى قمة رأسه ، ويتوهج جسده مثل الحديد أحمته النار ، فان بلاديوس الطوباوي (+ ٤٢٥) يقول عن الأب ارسانيوس (+ ٤٤٥) انه بينما وقف يصلي في صومعته رآه أحد الاخوة من النافذة ، وكأنه تماماً عمود نار

وتوصف حال كهذه بالسَكَر ، كما يصفها اسحق النينوي بقوله : « والعقل يتيه بالعجب وينسى الناسك موضوع طلبته ، وتغمر حركاته في سكر عميق ، ويضحي خارج هذا العالم ولا تبقى للجسد أو النفس ميزة وكأن هذا الناسك جسم هامد او كانه بحكم اللاموجود » . ويصف الغزالي هذه الحالة مستشهداً ببيت من الشعر للشبلي يقول :

ان المحبة للرحمن اسكرني وهل رأيت محباً غير سكران ؟!(١)

والقشيري يعرفها هكذا « والسكر غيبة بوارد قوي ، ولها ثلاث مراحل وأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الري .

النوم واليقظة

ان هذه الحالة من السكر يصفها العارفون بانها غيبة عن العالم ، وحالة لا وعي للاشياء المادية ، مع تقبل الروح للانطباعات الروحية هنا يمدح النوم كحالة للحياة الروحية بينما اليقظة تسمى نوماً . فيقول ابن العبري : « ان العارف ينام ونفسه عن تسبيح الله لا تنام » . وفي فصل حركات الكمال من كتاب الحمامة يقول : « ولاسيما ابان الصلاة حيث يبطل النظر وتلتهب النفس ويذهل العقل ، ويسقط الانسان ارضاً كميت لا حراك فيه ثم يستوي قائما ،

---

(١) احياء علوم الدين ـ الجزء الرابع

ويستعد للرؤية فتنقشع السحابة رويداً رويداً ، وتستنير العين . وفي هذا المقام يفتقد الكامل كنائم وهو يقظان ويحسب مستيقظاً وهو نائم » (١) ويقول ابن عطا الله « قيل لي في نوم كاليقظة أو يقظة كالنوم » . ويقول ابو طالب المكي « فيكون نوم العارف يقظة لأن قلبه حياة » . ويقول اسحق النينوي « ان من تحدث له رؤية لا يعرف فيما اذا حصلت في حالة اليقظة أم اثناء النوم » وهذه هي حالة الغيبوبة وفقدان الوعي للاشياء الحسية وتدعى بتعبير علمي اللاشعور ، ويقول عنها القشيري « فالغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من احوال الخلق لأشتغال الحس بما ورد عليه ثم قد يغيب عن احساسه بنفسه وغيره » .

الابتهال والذكر

عندما يفرغ الناسك من صلاته يبقى اسم الجلالة على لسانه ، ويصف ابن العبري هذه الحال بان الزاهد يستمر يتمتم : اللهم ! اللهم ! ويستمر طويلاً ، ولو انه لا يحرك شفتيه تبقى الكلمة على لسانه . ثم يختفي الاسم من بين شفتية ويبقى الذكر في قلبه ، وبعدئذ يختفي من قلبه ايضاً ويلازم عقله فقط ، وهكذا تبقى النفس ملتهبة شوقاً الى ربها اللامتناهي وتعطي نفسها برمتها لربها ، فلا تفكر بسواه ، ومنذئذ تفتح نوافذها تدريجاً ويمر الله امامها فجاءة كالبرق ، ثم يغيب وقد يتأخر رجوعه اليها وعندما يرجع يبقى فترة طويلة . بهذا التحديد للابتهال والذكر ، يمكننا ان نقارن عبارة ابن عطاء الله القائل : « لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ، لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره ، فعسى ان يرفعك من ذكر مع وجود غفلة الى ذكر مع

---

(١) الحماة الباب الثالث الفصل الثاني .

وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة الى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور الى ذكر مع وجود غيبة عما سوى المذكور وما ذلك على الله بعزيز » .

البـــــرق

ان ظهور الله كوميض من برق ، هو مقدمة المشاركة الثابتة معه . ان القشيري يعبر عن ذلك بكلمات لطيفة تقارن مع تعابير ابن العبري حيث يقول : « فتكون اولاً لوائح ثم لوامع ثم طوالع فاللوائح كالبروق ما ظهرت حتى استترت ، واللوامع اظهر من اللوائح وليس زوالها بتلك السرعة . والطوالع ابقى وقتاً واقوى سلطاناً وأدوم مكثاً ، وأذهب للظلمة ، وانفى للتهمة » .

النـــشوة

اي الجذل ونشوة العقل هي تحرره من ضواحيه الأرضية ، وارتفاعه الى السماء ، فيخطف الانسان ويجذب نحو السماء ويخدر ، وينذهل ، ويتعجب ، ويصف ابن العبري هذه الحالة فيقول : « كان أحد الاخوة يقول : اذا ما اشرقت علي المحبة الأبوية فأختطفت عقلي ، قبل ان يرتمي حائراً متهيباً ، يسبح في بحر من نور فيغتمد ، ويتسامى بوحيه ، ويتصاعد خاشعاً ، ويشمل بكؤوس مترعة من العظمة مبتهجاً ، ويضطرم حباً وهياماً ، وفي صفحته يبصر الملائكة يشرقون وينشدون فينظم اليهم منشداً مسبحاً ، ثم يجمع قواه ، فيتوارى عن غايات الانوار المتألقة ، ويخشع لرؤية ذوي الجمال ، ويصعق بحب ذي الجلال ، ويستحيل كل شيء لديه الى عدم ، حتى ذاته . وفي هذا المأزق المتسامي عن المعرفة والحركة ، يخشع العقل هنيهة تارة ، وطوراً ساعة كاملة ، أو النهار كله ، طبقاً لارادة الروح ، وبعد اجلاء هذه اللحظات الرهيبة ، يستمر مصعوقاً لاحراك

فيه ، زهاء اسبوع كامل ، ثم يغيب العقل ايضاً ، ثم يشرق ، ويظهر أولاً كالكوكب الدري ساطع الاشعة رائع الجمال مشرقاً متألقاً ، ثم يستحيل الى عمود من نور ، ثم يرتفع العقل ويغيب من جديد متوارياً في السحاب ، حيث تهبط عليه منح الوحي والالهام ، والنبوة والشفاء

يقال ان انطونيوس عندما كان يصلي صلاة الساعة التاسعة ، شعر ان عقله قد ارتفع . وقديس آخر وجد في نشوة مدة اربعة ايام ، بينما كانت يداه ممتدتين الى السماء وهو واقف في الصلاة . فالصلاة في هذه الحال تتركه فهو في نشوة رؤية الروحيات يعجب . لذلك فالقشيري يقول « المعرفة غايتها شيئان الدهش والحيرة » وايضا يقول : « وعند المحققين ، المحبة استهلاك في لذة ، والمعرفة شهود في جيرة ».

الالـــــهام

الحيرة هي الحال التي تكون فيها اعمال الجســـد والعقل قد انتهت ، فهي قريبة من الحال التي يقول فيها النساك ، انهم تسلموا الالهام . والالهام هي الحالة التي يكون فيها العقل ساكناً ، ولا يستطيع الانسان اكتشاف وسيلة لنيل المعرفة الروحية عن طريق المساعي الحماســية والاختراعات البشرية . فهو يحصل فقط بالاعمال الروحية . ويصرح ابن العبري قائلاً : « انه يتوق ان يرى عن طريق الاعلانات كل ما فهمه بالعلم » أي بالتأمل الروحي . ويذكر القشيري سلسلة من الكلمات تعبير أعن الالهام فيقول « المشاهدة ، والمكاشفة ، والمحاضرة ، والتجلي » . ومثل هذه الكلمات يعبر عنها ابن العبري كالتالي :-

١- كالبرق الخاطف . ٢- كنجم حجبته السحابة عن الرؤية . ٣- الحمامة في

وكرها (١) ويعطي القشيري توضيحاً لكلماته فيقول : « فالمحاضرة وهي حضور القلب وقد يكون بتواتر البرهان . ثم بعده المكاشفة وهي حضوره بنعت البيان . ثم المشاهدة وهي حضور الحق من غير بقاء تهمة » .

الالفـــة

ان الالهام يمنح النساك شعوراً بالالفة مع الله . ويقول ابن العبري«حين تتفتح عينا العقل ، بحسب قابليته ، تفيض عليه النعمة ، فيستضيء بالاشعة الملائكية الساطعة ، ويستأنس بأهل الملكوت ، وينضم الى اجواقهم السعيدة ويبتهج ويمجد معهم ، ويصير غريباً عن العالم وكل مافيه (٢)، ويسمي ابن العبري هـــذه الحالة « العـزاء بالله أو السلوى بـــه »(٣) . ويقول الغزالي : « واذا غلب عليه الفرح بالقرب ، ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره مقصوراً على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت الى ما لم يدركه بعـــد ، استبشر القلب بما يلاحظه ، فيسمى استبشاره أُنســاً » . وابن عطاء الله يناجي الله تعالى بالصلاة التالية : « يا من اذاق احباءه حلاوة مؤانسته .

الدالـــة

ان الحالة التي تسمى بالسلوى ، والانس ، والالفة . قريبة جداً من الدالة ، أي حرية الكلام امام العزة الالهية ، ويصفها ابن العبري قائلاً : « ومن هـــذه التعزية تتولد الدالة ، وهذه وان كانت خطرة ، لان روح الجسارة تمازجها ، وقد سماها الحكماء ريح السموم ، الا انها اذا رافقت من رسخوا في اعماق التعزّي

---

(١) الحماة ـ الباب الثالث الفصول الاول والثاني والثالث والرابع

(٢) فيه ـ الباب الرابع ـ القول (١٦) .

(٣) الايثيقون المقالة الرابعة الباب الخامس عشر الفصل الحادي عشر

بالله ، فليست خطرة ، وتكمل هذه الدالة اذا ما ارسل الله روح ابنه الى قلوب الكاملين فتهتف « يا أبا الاب » (١)

وللغزالي نظريات في الالفة والسلوى في الله ، والدالة ، وحرية الكلام ، حيث يقول : « اعلم ان الانس اذا دام ، غلب ، واستحكم ، ولم يشوشه قلق الشوق ، ولم ينقصه خوف التغير ، والحجاب ، فانه يثمر نوعاً من الانبساط ، في الاقوال ، والافعال ، والمناجاة مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة ، لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ، ولكن محتمل ممن أقيم في مقام الأنس ، ومن لم يقم في ذلك المقام ، ويتشبه بهم في الفعل ، والكلام ، هلك به ، واشرف على الكفر » (٢) وابن عطاء الله ايضاً ينذر المتصوف ويحذره قائلا : « قف على البساط ، واياك والانبساط » .

وحالة الانس قريبة جداً من غاية النسك القصوى ، الا وهي الاتحاد بالله التي يقول عنها العارفون ، بانها الحال التي لا توصف . وقد وصفها السريان ، بنوع رمزي ، فقالوا عنها انها الدخول في السحابة .

السحاب

يقول ابن العبري في مقدمته لكتاب الحمامة : « ان الباب الثالث يبحث في شرح الاستقرار الروحي للحمامة المعزية التي توصل الانسان الى مرحلة الكمال ، وتسمو به الى الدرجة الملكية ، وتولجه في السحابة الالهية ، التي يقال عنها ان الرب ساكن فيها » . ويقول في موضع آخر : « كما ان الجائع لا يشبع بالماء ، والعطشان لا يرتوي بالخبز ، كذلك العارف الذي يرغب ان يرنو الى باطن

---

(١) الايثيقون المقالة الرابعة الباب الرابع عشر الفصل الحادي عشر .

(٢) احياء علوم الدين .

السحابة السينائية لا يلذه خبر الكتب الا قليلاً » (١) ويقـول ايضاً « الذين يدخلون السحابة يدركون عمق الله وغناه وحكمته بدون وساطـة التصـورات وعرقلتها » (٢) ويقتبس في كتابه « الايثيقون » قول أحد المشاهير مـا نصـه : « واذا ما بلغ الناسك السحابة الالهيـة وانتهى الى ميناء الامان » يرى مجـد الرب وجهاً لوجه ، فيتلألأ ، ويستحيل الى كائن يشبه ربه ، وهنـاك تفيض منه الرحمة على الكون كما يفعل ربه » (٣) . ويقول اسحق النينوي : « ان حالة التشبه بالله يدعوها بعضهم بالسحاب » . كما انه يستعمل تعبيراً آخر حيث يقول « انك تجد اجنحة العقل تنمو في احشاء العفة ، وبهذه « الأجنحة » يرتفـع « العقل » الى المحبة الالهية فيجرؤ على التقرب من السحاب » .

الانخطـاف

ان انخطاف العقل يوضح بعبارات الشوق ، حيث يغيب الناسك عن حسه . وهذه الحالة يدعوها المتصوفون المسلمون بـ « الفناء » ويدعوها النساك السريان بالانخطاف ، وهو دخول النفس السحاب : ويستمر هكذا ، عندما يتوضح امام النفس وجه ربها فسرعان ما تذهل امام هذا الشعاع ، فتستنير بجماله ،وتضحي عاجزة عن ترك بهجتها هذه ، وان لم يطلقها ربها من الاتحاد به تنس شريكهـا الجسد ، وعندما يرجع عقل الناسك ثانيـة الى الرب حينذاك يخطف الجسد معه ايضاً ،ونادراً مايحطم اثناء الصعود ، وهكذا يرتفع من مجد الى مجد بوساطـة الرب الروح . ولا يسهو العقل عن كل ما هنـا وحسب ، وانما ينسى نفسـه جميعاً ايضاً ، ولأجل ما يكتنفه من النور يرى نفسه شبيهاً بالله . ويصف لنـا

---

(١) الحمامة ـ الباب الرابع ، القول (٧)

(٢) فيه القول (١٢) .

(٣) الايثيقون المقالة الرابعة الباب الخامس عشر ـ الفصل الخامس عشر

اسحق النينوي ذلك بقوله : « حقاً ايها الاخوة ، ينسى الناسك احياناً ان نفسه (لا تزال) لابسة جسدها (الترابي) ، ولا يعرف فيما اذا كان لا يزال على الارض (يعيش) . ويقول القشيري « واذا قيل فنى عن نفسه وعن الخلق ، فنفسه موجـــودة والخلق موجودون ولكنه لا علم له بهم ، ولا به ولا احساس ولا خبر . . ولكنه غافل عن نفسه وعن الخلق اجمعين غير محس بنفسه وبالخلق » وقال ابن عطاء الله : « وقد سئل ابو سعيد ابن الاعرابي عن الفناء فقال : « الفناء ان تبدو العظمة والجلال على العبد فتنسيه الدنيا والآخرة ، والاحوال ، والدرجات والمقامات ، والاذكار . تفنيه عن كل شيء وعن عقله وعن نفسه » .

الاتحـــاد

بلغنا الآن ، الى مركز اتحاد الانسان مع الله ، الهدف الاسمى المقصود من التصوف . والصورة الرئيسة فيه ، ويوصف هذا الاتحاد بان (يرى المتصوف ذاته انه صورة الله ، وانه أصبح شبيهاً بالله) . وشبهه العارفون باتحاد الحديد بالنار . والهواء بنور الشمس . ويصفه ابن العبري قائلا : (ويرى الناسك) ذاته انه صورة الله ، واذ يعب كؤوساً مترعة في ذلك المخدع ، يغيب عن حسه ، ويهذي في سكره ويقول : « انا والاب واحد ، وأبي فيَّ وانا فيه » مع اشياء اخرى غيرها تحرص الحمامة على اخفائها ، ولأجلها تقول : « الســـر لي ولبني بيتي » ، ولما وقف السعيد بولس على سر هذه الامور قال : انه « سمع كلمات لا ينطق بها ، ولا يسوغ لأنسان ان يتكلم بها » ويتابع ابن العـــبري قوله « متى اتحد العقل بالصالح فانه يترك اسم المحبـــة والمودة لأن المحب والودود ، يصير ههنا شخص المحبوب المودود (ذاته) » (١) وهنا يبلغ الناسك أوج الامر الذي عقد عليه قلبه ، ووطن نفسه ، ولم ينثن عنه ، فادركه ، وبذلك ظفر بأمنيته ، ونال مراده ، وفاز بسعادة أبدية .

---

(١) الحمامة الباب الثالث الفصل الرابع

كتاب الحمامة

وهو الموجز في سيرة المتوحدين

الف

مغريان المشروقي الرب القديس مار غريغوريوس

ابن العبري المبجل (١)

المقدمة

كما اننا نجد في علم طب الاجساد ، يا أخانا ، كتباً تتضمن العناية بالمرضى الذين لا يتوفر لديهم طبيب ، هكذا ايضاً في طب الأنفس تجب معرفة معالجة المرضى الذين ليس لهم مرشد ، أو كان هذا في منأى عنهم ، لاسيما في هذا الجيل الذي خلت فيه الأمة السريانية من عالم اختبر بذاته حرج الطريق الموصلة الى الملكوت ، وضيق الباب المؤدي اليه ، لذلك عزمنا على ان يكون موضوع بحثنا هذا سهلا وبسيطاً . وقد قسم هذا الكتاب الصغير في مبناه ، والعظيم في معناه ، الى اربعة ابواب :-

---

(١) الأصل « المعظم بالله آمين » ونرى ان كلمة « المبجل » تغني عن هذا التعبير في النقل الى لغة الضاد .

الباب الاول :ـ تعليم العمل الجسدي الذي يتم في (القنوبين) دار المبتدئين (١) .

الباب الثاني :ـ كيفية ممارسة السيرة الروحية في الصومعة .

الباب الثالث :ـ شرح الاستقرار الروحي للحمامة المعزية التي توصل الانسان الى مرحلة الكمال ، وتسمو به الى الدرجة الملكية ، وتولجه في السحابه الالهية ، التي يقال عنها ان الرب ساكن فيها .

الباب الرابع :ـ قصة تدرج المؤلف بالعلوم ، ويلحق بذلك اقوال الهامية .

وتشير الى هذه المواضيع الاربعة ، سيرة نوح ، التي مرت بمراحل اربع ، الاولى : عمل البر الذي أرضى به الله . الثانية : دخوله الفلك الذي نجاه من هلاك الطوفان . الثالثة : خروجه من السفينة عندما بشرته الحمامة بنقص الماء على وجه الارض

الرابعة : الايحاءات التي ألهمها والعهد الذي قطعه (الرب) معه ، وغرسه الكرم ، وشربه من خمره ، وسكره . لكن تلك الحمامة كانت غير ناطقة ، وكانت ماتة ، واما هذه الحمامة فهي ناطقة وخالدة ، بل انما هي ايضاً تهب نطقاً للناطقين ، وحياة للاحياء ، تطير طيراناً دون ان تغادر مقرها العلوي فوق بيعة الابكار السماوية . تبلغ كل مكان دون ان تتحرك من مكانها . لا لون لها ، وبها تتصور الاشكال كافة . تسكن المشرق وهي في كل المغرب ،

---

(١) صنهدرين : كلمة يونانية Choinobin ومعناها المنتدى أو المجتمع اطلقها الرهبان الاولون على مكان اجتماعهم (تاريخ مدينة الله انطاكية العظمى ـ للدكتور اسد رستم ـ بيروت (بدون تاريخ) جـ ١ ص ٢٩٠ .

غذاؤها نار ومن ترفرف عليه بأجنحتها تتقد في فيه ألسنة من نار . المشغوفون حباً ، ومرضى الهيام كافة ، يبيحون لها بأسرارهم ، وهي تروي لهم ظمأهم . كلامها يقرع كل اذن ولكن قليلين يستجيبون له .

تدعو كل انسان بأسمه ، ولكن واحداً من الف يلبي نداءها . هديلها أحلى من نغمة الارغن السائغ الرخيم . وكما قال الشاعر :

انهـا الطهر خالصاً لم تدنســ

ها عيوب ولا نَمتها هيولى (١)

(١) تعريبها نثراً كالتالي : انها طاهرة جداً وذات حياء ، ولا يمكن ان توصم بشائبــة ، ولا تمت الى المادة بصلة ، لانها روحانية لا جسم لها .

الباب الاول
العمل الجسدي في دار المبتدئين
وفيه عشرة فصول

الفصل الاول
ابتعاد الانسان عن العالم

يبتعد الانسان عن العالم وشهواته لسببين اثنين :ـ فالسبب الاول ، حقيقي رئيس ، وهو نتيجة الهام الهي ينشأ في فكر الانسان فيوقظه من سباته ليتصور ليل نهار امامه العذاب المعد للخطاة في العالم الآتي ، والنعيم الموعود به للابرار في ملكوت الله .

وهذا الامر لا يحدث الا نادراً ولأفراد قليلين ، وفي أزمنة متفاوتة ، وفي بعض الأمكنة فقط .

اما السبب الثاني فهو مجازي ومستعار ، انه محبة المجد الباطل ، التي تغري الانسان بالشهرة حتى تسوقه الى اقتناء المجد بأتعاب النسك المضنية ، ومثله مثل بعض الاغنياء الذين في سبيل الحصول على المجد يضحون فيقدمون خسارة كبيرة . وهذا السبب يحصل لكثيرين وفي كل زمان ومكان ، وهو ولئن كان هيّناً حقيراً ، يقتضي عدم رفضه رفضاً باتاً ، إذ كثيراً ما تسقط البذور على الارض عفواً وتأتي بثمار كثيرة . وكم من بذور فُلح حقلها ولكنها لم تثمر .

الفصل الثاني
التوبة

متى يدرك الانسان الفاضل مضرة الخطيئة ، يندم على ما اقترفه من الزلات ، ويبعد عنه ما كان منهمكاً به ، ويعزم على ألا يعود الى الخطية ثانية .

وعزاؤه ان التوبة تقبل كلما قدمت ، كتوبة أهل نينوى وتوبة سمعان هامة الرسل .

وتكون الخطايا اما عقلية كالكبرياء ، والمجد الباطل ، والحسد ، والنميمة . أو غضبية كالسخط ، والسلب ، والحقد . او شهوانية كالطمع ، والشراهة ، والفسق . وخطيئة العارف عظيمة مهما صغرت . (١)

وعلى التائب اذا ما اخطأ ان يطلب من الله المغفرة بتنهدات شجية ، معترفاً بخطاياه ، كما فعل الذين كانوا يعتمدون من يوحنا في الاردن (٢) وكما فعل الذين آمنوا (بالمسيح) اذ كانوا يأتون الى الرسل ويقرّون بخطاياهم (٣) . وقد قال يعقوب الرسول : « اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات » (٤) كذلك قال يوحنا الرسول : « ان اعترفنا بخطايانا فهو أمين وعادل حتى يغفر لنا خطايانا » (٥)

---

(١) قال الغزالي في كتاب احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٨ .
(ويتجاوز عن العامي في أمور لا يتجاوز في أمثالها عن العارف لان الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف) .

(٢) انجيل متى ٣ : ٦ .

(٣) سفر اعمال الرسل ١٩ : ١٨

(٤) رسالة الرسول يعقوب ٥ : ١٦ .

(٥) رسالة الرسول يوحنا الاولى ١ : ٩ .

الفصل الثالث
الزهد

أيّان ترسخ التوبة الحقيقية في نفس الانسان ، ويرى مقتنيات الدنيا فائضة عن الحاجة والضرورة انما تطلب لأغراض الخطيئة ، يحتقرها ويزهد عنها .

وللزهاد درجات ثلاث : سفلى ، ووسطى ، وعليا . فالسفلى : هي درجة الذين يزهدون عن اللذة خوفاً من العذاب العتيد (١) واما الوسطى فهي درجة الذين يرفضون اللذة الزمنية طمعاً في نعيم الفردوس . اما العليا فهي درجة الذين مطلبهم هو الرب الصالح وحده ولذلك يشيحون بوجوههم عما سواه . ويكيل العلماء المدح لهذه الغاية .

ويكون الزهد في المال . والقوت ، والكسوة ، والمسكن ، والاثاث .

فالزهد في المال هو ان لا يقتني الزاهد شيئاً منه .

واما الزهد في القوت فهو ان يدّخر له كفاية سنة واحدة أو شهر واحد ، أو يوم واحد ، من خبز الحنطة أو الشعير أو الذرة . (لما يحاول تناول طعامه) يغمس (الخبز) بالسمن أو الزيت أو بماء ملح . (وهذه الاخيرة هي ادامة وحسب) .

---

(١) قال ابن عطا الله (١ : ٦٧) « مَن عَبَده لشيء يرجوه منه او ليدفع بطاعته ورود العقوبة عنه فما قام بحق أوصافه » .

واما الزهـد في الكسوة فهو ان يكتسي بثوب دونٍ (١) من الصوف او الشعر يستر به جسمه حتى الركبة. ويتمنطق بسير (٢)، أو ان شاء لبس رداءً، واعتمر بقبعة وانتعل حذاء.

واما الزهد في المسكن فهو أن يأوي الى صومعة صغيرة أو كهف أو كوخ، أو لا يكون لـه مكان معين، اقتداء بربنا (يســـوع). بل يجلس ويرقد حيثما اتفق لـــه.

اما الزهـــد في الاثاث فهو ان يستعمل الأواني المصنوعة من الخزف أو الخشب أو القرع.

الفصـــل الرابع
التواضع

لما كان زهد الكثيرين عن غير اختيار، لذلك فالتواضع هو علامة الزهد الحقيقي، ودلالة التواضع هي الطاعة، وللتواضع دلائل اخرى ايضا كعدم تحرُّج (المرء) اذا جلس في مجتمع ما بمقام أحط من مقام من هو اصغر منـه (٣)، وكذا في اوان الصلاة. وان يتصرف ببشاشة مع المســاكين، والفقراء، واذا ما دعـوه يلبي دعـوتهم (٤).

---

(١) الحقير: الخسيس الثمن.

(٢) قطعة من جلد مستطيلة تتخذ حزاماً، وجمع سير سيور وسيورة وأسيار.

(٣) قال الغزالي في كتابـه احيـــاء علوم الدين ج ٣ ص ٣٠٩: «ويجلس في الصدور تحتهم».

(٤) فيه ايضاً «ان يجيب دعوة الفقير ويمرّ الى السوق في حاجة الرفقاء والاقارب».

وان لا يأنف من الاتشاح بالأطمار . ويقول مار اسحق : « ان التواضع حتى بدون تعب يغفر خطايا كثيرة » (١) . ويقول ايوانيس رئيس الدير (٢) اذ كانت الكبرياء وحدها دون سائر الاثام قد هوت بالشيطان من العلا ، فالتواضع بدون بقية الفضائل يُصعد الى السماء .

وعندما يصاب الانسان بمرض الكبرياء ، يشفى بمعرفة ذاته ، اعني انه قد خلق أولاً من نطفة نتنة وسيكون بعد وفاته طعاماً قذراً للدود . وقد قال أحد العلماء : كيف يتكبر من خرج مرتين من مجرى البول (٣) .

الفصل الخامس
الصَبر

كما ان الطاعة تلازم التواضع ، يقتضي ايضا ان يتبع الطاعة احتمال الشدة . وتكون الشدة اما زمنية ، واما ابدية ، وكذلك تكون الراحة ايضاً . واذ ان الشدة الزمنية هي وسيلة للراحة الأبدية ، والراحة الزمنية هي وسيلة للشدة الابدية ، لذلك فالعلماء الحائزون على حكمة المسيح ، يحتملون الشدة الزمنية من أجل الراحة الأبدية .

---

(١) « قال يوسف بن اسباط : يجزي قليل الورع من كثير العمل ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد » . (الغزالي في احياء علوم الدين ج ٣ ص ٢٨٦) .

(٢) يقصد دير سيناء ،

(٣) جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي مج ٣ ص ٢٨٨ مايلي : « فقال سلمان لكنني خلقت من نطفة قذرة ثم اعود جيفة منتنة . أفَتَرَى ان الدودة التي خلقت من بول انسان اشرف من الدودة التي من بول فرس » .

وهذه هي الشدائد التي يجب الصبر على احتمالها : الجهاد ضد الشراهة والشهوة الجنسية (١) ، واتعاب النسك الارادية ، والتجارب غير الارادية ، التي تحصل بسماح من الله لأمتحان المتوحد ، كالأحداث الصعبة والمستعصية ، وملاقاة الناس الاشرار والكافرين . والسقوط من الكهوف ، وأحتقار المدبرين وأستهزائهم وسائر الاخوة ، بالمبتدئين الخادمين في الاقنوبين (٢) دون ان يذنبوا . وايقاعهم بامراض مستعصية كالكسل والاهتمام بالجسد ، وأضطراب الضمير ، واليأس ، وظلمة الافكار ، ومنع المساعدة البشرية ، وهذه كلها تشفى بكلام ربنا « الذي يصبر الى المنتهى فهذا يخلص » (٣) وتعالج بكلمات الآباء القديسين عن فضيلة الصبر والخلاصة ان من لا يضطرم (قلبه) بمحبة الله . يشابه اللبنة (الرطبة) اذا وضعت في أساس على ضفة نهر (جار) لا تصمد ولو ساعة واحدة ، ولكن اذا سحرت بالنار صارت صلدة كالصخرة .

الفصل السادس
محبة الاخوة

محبة الاخوة هي علامة الصبر الحقيقي . لذلك يجب ألا تشوبها العثرات بل تكون عن طيب خاطر وحسن الرضا .

---

(١) جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي ج ٣ ص ٧٠ « باعث الفرج والبطن » أي فحشاء ومسخرا

(٢) دار المبتدئين .

(٣) انجيل مرقس (١٣ : ١٣)

والمحبوب الحقيقي هـــو الذي يُحَب لذاته ، اذ ان محبّه يلتـذ بعشرته . وليس مصدر هذه اللذة جمالاً ظاهراً أو باطناً انما هو انسجام خفي (وتجاوب باطني) ما بين الشخصين . (فليس غريباً اذا ما علمت) ان اناساً يحبون ذوي المناظر القبيحة والاخلاق السيئة .

والانسان (عادة) يحب من يساعده في غرض جسدي ، أو يرشده الى فائدة روحية ، كمعلم (العلوم) النظرية والعمل الصالح . ويحب من كان فطناً لا جاهلاً ، وعفيفاً لاشرهاً ولاطماعاً ، وطيب المعشر لاشرساً .

ومن المحبين من يعتبر صـديقه كقريبه فيعطيه مما يفضل عنه ، ومنهم من يعد صديقه كنفسه ، ومنهم من يرغب في فائدة صديقه اكثر من نفسه . ومنهم من يعرّض نفسه للتجربة عوضاً عن صديقه .

وعلى الصديق ان يساعد صديقه ويسد له حاجته قبل ان يطلب هـذا منه بلجاجة أو بغير لجاجة . وان يقاوم اعـــداءه ، ويصفح عن زلاته . ولا يفضح عيوبه ، ولا يخفي طيب شمائله ، ولا يثقل عليـــه ، وان لا يصغي الى قصص جاره ، ولا يراقبه من خُصاصة (١) البـــاب ونحوه متجسساً عليه . ومن لم يعتن ببني جنسه المؤمنين ، كان شراً من غـــير المؤمنين كما قال الطوباوي مـار بولس (٢) .

الفصـــل السـابع
عثرات اللسـان

لابد ان نتكلم بعد هذا كله عن العثرات المندسة في هذه الطريق الضيقة

---

(١) الخُصاصة بضم الخاء الشق في الباب او الحائط أو البرقع ونحوها .

(٢) رسالة الرسول بولس الاولى الى تلميذه تيمثارس (٥ : ٨)

لأن من لا يعرف ضررها فلا يتمكن ان يحذر منها وهي كالآتي :

الكلام الباطل :

وهو الكلام الذي لا يبرر الانسان ان نطق به ، ولا يخطيء ان لم ينطق به ، ومصدره البطالة غالباً . ويعالج بالخلود الى السكينة ، وتدريب اللسان على الصمت . وبعضهم يضعون حصى في افواههم ليمنعوا بها انفسهم من الكلام (١)

الهذر :

وهو الاسراف في الكلام . وسببه قابلية الانسان على طلاقة اللسان ، والتوغل في سرد قصص القدماء (مثلا بدون مناسبة أو داع) ويعالج كالسابق .

الكلام الذي يسبب الخطيئة ضمنا :

هو سرد اخبار مجد الاشرار وانتصاراتهم وغناهم ، والاخبار التي اذا ما سمعها البسطاء ساءت نيتهم ونقص ايمانهم . ويعالج هذا بما جاء بالمزمور (٢) « اما الاشرار فيبادون جميعاً » في هذا العالم أو في العالم الآتي .

الخصام :

وهو العناد وعدم الطاعة

وينتج عن الكبرياء التي تسوق الانسان الى تعظيم نفسه ، والبغضة التي تجذبه الى احتقار صديقه ، ويعالج الخصام بتحطيم هاتين الرذيلتين الذميمتين .

---

(١) جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي ج ٣ ص ٩٧ ما يلي (كان أبو بكر الصّديق يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه من الكلام) .

(٢) المزمور (٣٧ : ٣٨) .

المشاجرة :

وهي النزاع بالكلام الذي يثار ، اما من الظالم ، واما من المظلوم . اما الاول : فيعالج بالآية القائلة : « لا تظلموا أحداً » (١) واما الثاني فبالآية القائلة « من اراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فأترك له الرداء ايضاً » (٢)

الشتم :

وله باعثان . الاول : ان يقصد الانسان اغاظة المشتوم ، والثاني كون الشتم عادة رديئة تأصلت بالأنسان وتمكنت منه بمعاشرة الجهلة ، ويعالج الشتم بالآية القائلة : « ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع ، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم » (٣) اما من توجه اليه الشتيمة فعليه ان يعتبر سببها خطيئته (الذاتية) لا من شتمه ، وبهذا ينجو من إبغاضه اياه ،

الحرم واللعنة :

الحرم هو ابعاد شيء عن الله .

واللعنة هي ان يطلب الانسان الشر لغيره . والعارفون الذين يسمعون كلام الرسول بولس القائل « باركوا ولا تلعنوا » (٤) لا يحرمون ويلعنون .

---

(١) انجيل لوقا (٣ : ١٤)

(٢) انجيل متى (٥ : ٤)

(٣) فيه (٥ : ٢٢)

(٤) رسالة الرسول بولس الى أهل رومية (١٢ : ١٤)

الغنـاء :

يتركب الغناء من عبارات مثيرة للميول الفاسدة ، ويضم بين طياته هـوى الزنا ، لذلك فهو مشجوب ، ومن كان مصاباً به فعلاجه ابدال الغناء بالترتيل .

الهزل :

هو الكلام الباعث على الضحك وهـو يميت القلب ويقلل الكرامة . ومصدره الدالة التي يصفها العارفون بريح محرقة تهب على الزروع ابّان الحصاد فتصوّحها . ويعالج الهزل بقـول الانجيل المقدس « ويل لكم ايها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون » (١) .

السخريـة :

وهي فضح مساوي، الناس استخفافاً وبنـوع من الاحتقار والازدراء ، وتعالج السخرية بقول الانجيل « لا تحتقروا احد هؤلاء الصغار » (٢)

التعيير والاستهزاء :

وهما اظهار عيوب الناس كرهاً وحقداً .

ويعالجان بقـول المرتل « طوبى للرجل الذي . . . في مجلس المستهزئين لم يجلس » (٣) .

---

(١) انجيل لوقا (٦ : ٢٥)

(٢) انجيل متى (١٨ : ١٠)

(٣) المزمور (١ : ١)

الكذب

وهو الاقرار بما لا وجود له ، كأنه موجود ، وبالموجود كأن لا وجود له . ويعالج الكذب بقول المرتل (مخاطباً ربه) : « تُهلك المتكلمين بالكذب » (١) واعلم انه اذا قصد به فائدة روحية لا يعتبر اثماً . مثلما لم يحسب كذب (المرأة المسماة) راحاب اثماً ، عندما اخفت الجاسوسين وانكرت وجودهما عندها (٢) . وقد قال أحد الآباء بهذا الخصوص ، « يجوز التصرف بهذا النوع من الكذب في حالة الخوف » .

الغيبة :

وهي ذكر زلات انسان امام شخص آخر بعدم حضور المغتاب ، وسبب الغيبة توهم مقترفها انه لا يأثم بأظهار زلات غيره . وقد يغتاب انسان آخر بصيغة التعجب او الشفقة (٤) كمن يقول (مثلا) : عجبي بذكاء فلان كيف سقط في الفسق ! وأسفي على فلان كيف انه أُخذ في السرقة . ويعالج هذا المرض بأن يحصي الانسان فضائل المغتاب فلا يذمه ان كان فطناً .

الوشاية :

وهي ذكر السوء امام الانسان الذي قيل عنه أو اقترف ضده ، والغاية من الوشاية اما اساءة للقائل واما احراز رضا الذي قيل عنه (السوء) ، واذا

---

(١) المزمور (٥ : ٦)

(٢) سفر يشوع (٢ : ٤ ـ ٦)

(٣) وهو أسلوب بشكل المذح يراد به الذم كما يقول البلاغيون

كان الاخير عادلاً لا يصدق الواشي بل يحتقره ، ويوبخه ، ولا يحقق معه مدققاً ، وهكذا يغادر هذا خازياً .

الشفاه الملقة :

الشقي صاحب الشفاه الملقة ، يمدح كلاً من الخصمين امامه ، ويذمه وراءه . ويعالج هذا الداء بقول المزمور « يقطع الرب جميع الشفاه الملقة » (١)

المدح :

يقترف المادح أربعة انواع من الأثم : الكذب ، عندما يقول عن المر حلو . والمحاباة : عندما يتطرف بالمدح . والضلالة : عندما يقول ما لا يعرفه بتدقيق . وسوء النية : عندما يبهج الأثيم (بمدحه)

اما الممدوح فينـاله شران ، الافتخار والكبرياء ، وكلاهما يعالجان بالصمت .

السَناجة بالكلام :

وهي كمن يقول لولا فلان لأكلني الذئب ، والجدير به أن يقول ، لولا ان الرب قيّض لي فلاناً لأكلني الذئب .

الفحص الشافه :

وهو ان يستقصي الانسان عن شيء لا تجدي معرفته فائدة أو خيراً . ولا ينتج الجهل به خسارة ، كمن يستقصي عن اسم أب ملكيصادق .

---

(١) المزمور (١٢ : ٣)

ومثلما تتنقى الفضة ، من رُذالتها . في الكور ، هكذا يتطهر المبتديء من هذه العثرات داخل دار المبتدئين .

الفصل الثامن
ارتداد المبتدئ (١)

بعد ان يكون المبتديء قد بذل جهد طاقته في اداء فروض دار المبتدئين ، ويظهر مستقيماً في التصرف اللائق برتبته ، واذ يعرف ان آوان دخوله الى سفينة القلاية قد حان ، تراوده افكار الجزع القاسية ويشرع يقول لنفسه ، لا قدرة لي على تحمل السجن الدائم ، وهذا الامر اعظم من ان يقدم امثالي عليه ، فاياك (ايتها النفس) ان تتجاسري على الدنو منه ، فقد أدخله لكن لعدم احتمالي (تبعاته وفروضه الشاقة) قد أخرج منه ، فأضحي سخرية للشياطين ، وهزءاً امام الملائكة والبشر . فالأجدر بي ان أبقى في العالم ، واعمل فيه البر المطلوب مني عمله . ألم يكن للابرار الأولين ، كأبراهيم واسحق ويعقوب ، نساء ، وبنون ، وبنات ، وانواع المقتنيات ، ومع هذا أرضوا الله اكثر من المتوحدين كافة . وهكذا موسى ، رأس الانبياء ، الذي كلم الله وجهاً لوجه ، وداود ، الملك والنبي ، الذي دعي قلب الله كما كان لبطرس هامة الرسل حماةٌ ومع ذلك استودع مفاتيح السماء ، وآخرون كفريسقلا واقولاوس كانوا يديرون حوانيت وفي الوقت نفسه كانوا ابراراً .

---

(١) قال القشيري : كل مريد وقف في ابتداء ارادته لا يجيء منه شيء .

والاب مقاريوس كان قد ارسل الى امرأتين متزوجتين في مدينة ليتعلم منهما الصبر . علاوة على ذلك فهناك وصايا الهية بخصوص الزواج كالآية القائلة « انموا واكثروا واملأوا الارض واخضعوها » (١) . اما البتولية فليس هناك عنها أية وصية . والرسول بولس يقول عنها « اما العذارى فليس عندي امر من الرب فيهن ، ولكنني اعطي رأياً »(٢)

فاذا اكثر المبتدىء التفكير بمثل هذه الامور ولاسيما عندما يغلب من الشهوة الجنسية ، يضحي رجوعه الى العالم هيناً . ويتهيأ للتحول من السيرة الروحانية الى الجسدانية ، اذا لم ينر عين بصيرته طبيب روحاني حاذق .

الفصل التاسع
تقويم سيرة المبتدئ (٣)

عندما يعلم المرشد الشيخ سراً ان المبتدىء يعرج على الجانبين . يخاطبه بأسى قائلا : وا أسفاه يا بني ! أراك تختار لنفسك نصيب امرأة لوط التعيس اذ التفتت الى الوراء وصارت عمود ملح .

ألم تسمع ما يقوله الرب « ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر الى الوراء يصلح لملكوت الله » (٤) . عجبي منك كل العجب ،

---

(١) سفر التكوين (١ : ٢٨)

(٢) رسالة الرسول بولس الاولى الى أهل كورنثوس (٧ : ٢٥)

(٣) وتدريج المريد في سلوك سبيل الرياضة (احياء علوم الدين ج ٣ ص ٦٦

(٤) انجيل لوقا (٩ : ٦٢)

اتعادل نفسك بالآباء القديسين والانبياء والرسل ؟ هل تستطيع *الذبابة أتيان ما يقوم به الاسد* ؟ *وهل بأمكان العوسج ان يُطال الأرز* ؟ فلا تضل يا بني بل اعلم ان الزواج الشرعي هو بالحق أفضل من البتولية الكاذبة الخداعة التي يراد بها ارضاء الله والعالم في آن واحد ، ولكنه ليس افضل من البتولية الصادقة التي لا تتأرجح بين المسيح والملك الارضي أو تتخذ لها طريقاً ذا اتجاهين . بل تمحض حبها كله لله وحده . وهي حسنة السيرة ، عظيمة الشأن ، خفيفة ، منيرة ، متعالية عن المادة ، منزهة عن الشهوة ، وما اجمل ما قيل :

ان يدي العلماني المتزوج مربوطتان ، وان رجليه مقيدتان . اما غير المتزوج فيداه فقط مكبّلتان . ولئن كان الراهب الحقيقي ما زال على الارض ، فانه يرتفع الى السماء باجنحة الروح التي يمتلكها . اما العلماني فعندما لا يتمكن ان يقوم بأود المرأة والأولاد من الكد الحلال ، غالباً ما يضطر الى الخطف والسرقة ، لأنه من يستطيع ان يحتمل شراسة المرأة ، أو ان يكفيها جميع حاجاتها ؟ . حقاً ان من تكن حاله بعذاب كهذا يتمن الموت .

وتدخل الخطيئة في العالم الى الناس من ابواب كثيرة كالحسد ، والحقد ، والبغضة ، والشهوة ، والتبرج ، ومحبة الفضة ، والشراهة ، والبخل ، واستقصاء احكام الله الفائقة العقل ، كالقول مثلاً لماذا اعدائي الاشرار اثرياء ، واصدقائي الابرار جياع طاوون ؟ (١) واشياء اخرى كثيرة مثل هذه لا ينجو منها الا المختارون .

فاذا ما انتصح المبتديء بمثل هذه الاقوال يعود الى منزلته اذا ما انتشاته العناية « الالهية »

---

(١) جمع طاوٍ ، وهو الضامر البطن من الجوع

الفصل العاشر
علامات الاستقامة

لأستقامة المبتدي، علامات واضحة وهي : وداعة في السير ، ورصانة في الصوت ، وطيب في الكلام ، وورع في المحيا ، وخشوع في الرؤية ، واضمار في المسرة ، وبساطة في اللباس ، واتشاح بالأطمار ، وكمال في المحبة ، وتلاوة المزامير وفهمها ، ومحبة للغرباء ونقاء في الافكار . واذ يصير الأخ كاملاً بهذه الاحوال ، يجاهد مسروراً ويصلي لأجل توبة عدوه ، وينصت الى كلام الحكمة ، ولا يتعجب كثيراً من أمر لم يشاهده ، ولا من خبر لم يسمع به من قبل ، ولا يسأل كل من يلتقيه : الى اين تمضي ، او لأية حاجة ، ولا يتفوه بالقصص الهزلية ، ولا يحب الزينة كالمرأة ، ولا يتطلع هنا وهناك الى جسمه ورداته ، ولا يشبك اصابعه ، ولا يداعب شعر لحيته . ولا (ينظف) اسنانه بمسواك الا خلسة .

ولا يفغر فاه اذا ما جاع ولا يتثاءب عندما يستيقظ من النوم ، ولا يبصق كيفما اتفق . ولا يحرك يده عندما يتحدث ، وفي المجالس يتخذ آخر مكان فيها متضعاً ، فلا يتصدر في اعلاها مرتفعاً ، ولا يجالس الحكام . بهذه العلامات يعرف المبتدي، الصالح الذي ما اكتسبها الا ليخدم في دار المبتدئين ،

الباب الثاني
أتمام السيرة الروحية في الصومعة ويحتوي على عشرة فصول

الفصل الاول
وَاجبات الصومَعة

يجب ان تكون السكنى في الصومعة بأدراك وتمييز لا عن تقليد كما يفعل الكثيرون ممن يحبسون انفسهم دون ما غاية يضمرونها في قرارة نفوسهم ، أو هدف يضعونه نصب أعينهم يصوبون اليه سهام مشقة طريقتهم ، وهذا الهدف هو انتظار موهبة انارة العقل تهبط عليهم من الرب . وقابلية مشاهدة الروحانيين بطبيعتهم ، ومعاشرتهم ، واشياء اخرى عظيمة تحدث للحبيس الناسك ، وتمنح له بعد قيامه بواجبات الصومعة

التي هي : الهدوء ، النسك الحقيقي الذي يتم بالصلاة ، والذكر ، والقراءة ، والدرس ، والصلوات القانونية في أوقاتها المعينة والسهر ، والبكاء ، والصوم ، وعمل اليدين ، والتعربة . وحفظ القلب من الشهوات الرديئة ، التي هي : الكسل ، والشراهة ، والجشع ، والهيَجَان ، والغضب ، والحسد . والرغائب (المغرية باللذات المنكرة) ، والطمع ، والمجد الباطل ، والرياء ، والكبرياء ، والافتخار ، والتوبيخ . فاذا ما تنقى القلب من امثال هذه الأهواء الرديئة ، وجب ان يتحلى بالمزايا الصالحة، كالمريض الذي علاوة عن احترازه وابتعاده عن أسباب (المرض) المضرة ، يحتاج الى ممارسة ما ينفعه ويساعده

(على التغلب على المرض) وهـذه (الامور بالنسبة للحبيس) هي : محبة العلم والايمان ، والشكر ، والرجاء ، ومخافة الله ، والفقر ، والاتكال (على الله) ، وصفاء النية ، وتذكر الموت ، هذه هي سيرة الانقياء القلب لانهم يعاينون الله (١) وسنبين كل واحدة (من هذه الصفات) : على حدة .

الفصل الثاني
العزلة

سمت العزلة في أعين العارفين العقلية الى درجة انهم فضلوها - ولو كانت (أحياناً) خالية خاوية من كل فضيلة - على العُشرة المقترنة بالفضيلة . فالطوباوي فلاديس قال : اني سألت الأب سرماطا قائلاً : ماذا أعمـل ؟ فانني لا أقوم ولو بواجب واحد مما تقتضيه الرهبنة ! ؟ انما آكل وانام وأفكاري مضطربة ! فاجابني إلزم صومعتك ، ومارس ما تتمكن عليه من العمل ولا تقلق ، فاني واثـق من انك تفوز مثل الأب انطونيوس .

وفوائد العزلة كثيرة ، أولها واسماها ، وأفضلها ، هي ما يكتسبه العقل من اللذة الروحانية بمعرفة الذات الالهية بطبعها (٢) علاوة على ذلك النجاة من الافكار العالمية المبطّلة للعبادة الروحانية . والخلاص من ثلب الاصـدقاء . ومن تبكيت الاشرار ومن التملق . «قد أُخزي الذين يتملقون

---

(١) انجيل متى (٥ : ٨)

(٢) جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي ج ٢ ص ١٨٣ مـا يلي : « التفرغ للعبادة والفكر والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق والاشتغال باستكشاف أسرار الله في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والارض » .

« لان الله رفضهم »(١) ، ومن مشاهدة القبائح والاستماع (أو الميل) أليها اذ تلتصق بالطبيعة بسهولة ولا تفارقها الابعد جهد جهيد . فان الانسان يقتبس بسرعة فائقة الكثير من الشر القليل في الوقت الذي لا يكتسب من الخير الكثير سوى القليل . والنجاة أيضاً من أذى الاشرار كما قيل : ـ

ان البهائم في الفلاة تلوذ من شر البشر : وكذا الوعول على الذرافي فامن من كل شر ـ واذا الوحوش الى المدينة أقبلتْ بِيعَتْ زُمَرْ :.

او جاور النسر القرى أعشى الدخان له البَصَرْ (٢) .

وأخيراً خلاص رفاق المعتزل من اذيته .

وللعشرة أيضاً فوائدها منها : العلم ، ومساعـــدة الضعفاء ، والتدريب ، والخبرة ، واحتمال اذى شرسي الاخلاق وحادي الطباع ، والتهذيب الذي ينتج عن تجربة الأمور . فبعد ان يكتسب المبتديء هذه الخصال في دار المبتدئين الذي يصفى كالذهب في النار (٣) ، يجب ان يختار حياة العزلة ويحبس نفسه في الصومعة .

---

(١) المزمور (٥٣ : ٥)

(٢) تعريبها نثراً كالتالي : ـ لا تضرب حيوانات القفر بعصا ، ولا توضع وعول الجبال امام القصابين . ان اقترب وحش البرية نحو السور سلبوه جلده ، والنسر الذي يأوى الى القرية يعمي الدخان عينيه .

(٣) قال أبو طالب (١ : ٩) « ان الله يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار » .

ومن الشروط الموجبة على الحبيس ، الامتناع التام عن محادثة الناس ، والتعود على حياة الانفراد الدائم في الصومعة ، وعدم مواجهة انسان طيلة أيام السنة ماعدا أيام الاحاد عند تناول القربان المقدس . وألا يزوره احد الا عند الضرورة القصوى . فان كثيرين ابتدأوا باعمال شاقة وانتهوا بسيرة ذميمة لعشرتهم للعلمانيين باستمرار ، ورؤية النساء الغنيات وتعليمهن ، بادعائهم معرفة علم الغيب ، واعلان الخفايا . ولذلك انقلبت اكواخهم الى نواد لاهل المدن والقرى ، وانتهوا من السيرة المنيرة الى أعمال الظلمة (١) .

الفصل الثالث
النسك بانواعه الاربعة
أي الطلبة والذكر والقراءة والفكر (٢)

١ ـ **الطلبة** : بعدما يصفح الانسان عمَّن أساء اليه ، يتجه نحو المشرق ، ويرفع يديه الى السماء ، ويطرق بنظره الى الأرض خجلاً من ربه (خاشعاً له) ، ويقدم طلبته قائلاً مرات عديدة : ـ

---

(١) قال ابن عطا الله (٢ : ٦٤) : « من دخل الخلوة معتلاً في دخوله دخل عليه الشيطان . . . وقد دخلت الفتنة على قوم دخلوا الخلوة بغير شروطها » .

(٢) جاء في كتاب احياء علوم الدين للغزالي ج ١ ص ٢٧٩ ما يلي : « فهذه الوظائف الاربعة اعني الدعاء والذكر والقراءة والفكر ينبغي ان تكون وظيفة المريد بعد صلاة الصبح بل في كل ورد » وقال أيضاً : « بعد الفراغ من وظيفة الصلاة ، فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربعة » .

اللهم ارحمني أنا الخاطيء ، ربي ارحمني ، ربي هب لي ما يصلح لي فأنت أنت العارف بذلك . وهكذا يعطيه الرب ما ليس في حسبانه ، (من صوالح النِعَم) .

الذكر : يكون ذكر الله بتكرار عشر جمل من تسابيح الفتيان الطوباويين ، ستاً من تسبحة (تباركت) وأربعاً من تسبحة (باركوا) . والحد الادنى للتكرار هو ثلاث مرات ، والاوسط سبع ، أما الحد الكامل فاربعون مرة بحسب الوقت والطريقة .

القراءة : وتكون القراءة في مطالعة العهد الجديد ، ولئن كانت النفس لا تشعر باديء ذي بدء بلذة من ذلك ، ولكنها تصوّر في المخيلة عوض التخيلات الجسدية تصورات روحانية فيتطهر العقل تدريجاً . ويجب أن يقرأ سبعة فصول يومياً ، أربعة من الانجيل أعني فصلاً من كل انجيل ، وفصلا من أعمال الرسل ، وفصلاً من الرسائل الجامعة ، وفصلاً من رسائل القديس بولس . وعندما ينتهي القاريء من كل فصل يركع ثلاث مرات أمام الصليب الذي هو رآية ربنا .

وينبغي ان توضع هذه الكتب على الكرسي . والذي لا يعرف القراءة فليتأمل في أعمال الله .

التأمل ، والتأمل أنواع ثلاثة :

الاول : ـ ان يتأمل الانسان في خطاياه وفي انه ان لم يهدم نفسه لا يستطيع انه يبنيها .

الثاني : ان يتأمل في عدل احكام الله وفي العذاب المحفوظ للاشرار ، وبهذا تتقوى مخافة الله في قلبه . والثالث : ان يتأمل في فيض مراحم الله والسعادة المعدة

للصالحين ، وهكذا يتردد شكر الله على لسانه (وفرة واضعافاً) . ويجول في مخيلته ، في العالم الروحي ، ويناجي بالروح ملائكة النور ونفوس الابرار .

الفصل الرابع
الصلاة وتقسيم اوقاتها

اذا كان موسى العظيم قد مُنع من الاقتراب الى العوسجة حتى خلع نعليه من رجليه ، فكيف يحاول الفكر ان يخاطب بالصلاة ذلك المتعالي عن كل حس دون ان يجمع من التشتيت ؟

ولئن يصعب على المرء جمع شتات الفكر باديء بدء ، ولكن بعد التدريب الصحيح وتذوق حلاوة الصلاة يسهل خزنه في اهراء القلب ، فيخاطب (هذا الانسان المخلوق) ربه بصورة عجيبة ،

ولا يستدعي صفاء الصلاة اطالتها . كما جاء في الانجيل المقدس ما يلي : « حينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلاً كالامم فانهم يظنون انه بكثرة كلامهم يستجاب لهم » (١) .

وهذه هي الصلاة الفرضية : ان يقف المؤمن متجهاً نحو الشرق مكتوف اليدين ، ويجمع فكره ويقول ثلاث مرات : « قدوس انت ايها الاله » ويسجد في كل مرة ، ويرسم علامة الصليب على وجهه ، ثم يقول ثلاث مرات : « يا ربنا أرحمني » ويسجد في كل مرة ثم يقول « المجد لك يا ربنا المجد

---

(١) انجيل متى (٦ : ٧)

لك يا ربنا المجد لك يا رجاءنا الى الابد » . ثم ينتصب ويصلي الصلاة الربانية وهكذا تختم الصلاة .

وعدد الصلوات المحدودة سبع :

الاولى وهي صلاة الصباح وتقام عند طلوع الشمس وبعدها يقرأ المتوحد اربعة فصول من الانجيل المقدس ثم ينشغل بطلبات ، وتأملات ، حتى تمام الساعة الثالثة . ثم يصلي الصلاة الثانية وهي صلاة الساعة الثالثة ، ثم يمارس اعمالاً يدوية ـ (اتقاء شرور مفاسد الفراغ) ـ حتى الساعة السادسة . وان لم يكن له شغل يدوي فلينهمك بالدرس . وبعد ذلك يصلي الصلاة الثالثة اعني صلاة الظهر . وليأخذ قسطاً يسيراً من النوم حيث أن هذه الإغفاءة القصيرة تساعده على احتمال السهر الطويل (١) وتزيل عنه محاربة شيطان الكسل الذي يقهر المتوحد في مثل هذا الوقت ، اذ يتطلع الى الشمس باستمرار فتتراءى له ثابتة (والوقت لا يعبر) . وبعد النوم ايضاً يقوم بعمل يدوي حتى الساعة التاسعة ويقرأ الفصول الثلاثة الباقية ، ثم يلازم الطلبة حتى غروب الشمس ثم يصلي الصلاة الخامسة اعني صلاة المساء ،

ويقضي بالطلبات والتأمل مدة ساعتين من الليل . ثم يصلي الصلاة السادسة اعني صلاة الستار ، ثم ينام . حتى نصف الليل ، حيث يصلي الصلاة السابعة (وهي صلاة نصف الليل) واذا استحوذ عليه النعاس فلينم (٢) قليلاً وهو

---

(١) الغزالي ج ١ ص ٢٨٠ من احياء علوم الدين « القيلولة وهي سنة يستعان بها على قيام الليل » .

(٢) الغزالي في احياء علوم الدين ج ١ ص ٢٨٤ « لا ينام ما لم يغلبه النوم » وقال ابن عربي « ولا تنام الا عن غلبة » .

جالس حتى تمام الساعة العاشرة ، وبعد ذلك يستيقظ ويكثر من ذكر الله تعالى (حتى الصباح) .

الفصل الخامس
الترتيل والسهر

الترتيل : وهو ان يرتل المتوحد قبل كل صلاة من صلوات النهار الاربع ، وتكون قبل صلاة المساء ترنيمتان . وقبل صلاة الستار ترنيمة واحدة وقبل صلاة الليل اربع ترانيم .

السهر : تزداد ساعات السهر وتنقص بحسب طاقة المتوحد ، فكثيرون يسهرون ثلث الليل ، أعني ساعتين في بدئه وساعتين في نهايته ، وينامون مدة ثلثيه الباقيين . وبعضهم يقضون نصف الليل ساهرين ، ونصفه الثاني نائمين . واما من بلغ فيهم درجة الكمال مثل الاب ارسانيوس فانهم يسهرون منتصبين على اقدامهم حيث يودعون الشمس وهي تغيب وراءهم مساء الاحد ، ويستقبلونها تشرق امام وجههم في فجر اليوم التالي

ومما يعين على احتمال السهر تقليل الاكل ، وعدم التعب الكثير ، وأخذ قسط زهيد من النوم وقت الظهيرة . ولذلك وجب الا يحمل الجسد من المتاعب اكثر من طاقته ، لأننا لم نؤمر في ابادة الحياة بل في القضاء على الاهواء الرديئة . لذلك فمن يصب بتخمة كثرة العمل فليرح جسده ، ويستعد قواه ، ثم يرجع الى عمله ثانية ان قوماً (من المتوحدين) يسجدون اربعين سجدة بعد صلاة الستار ، وبعضهم يفعلون ذلك بعد صلاة الصبح ايضاً . وينبغي ان

يقترن الترتيل بالبكاء ، ووازع البكاء رقة القلب ، واضطرام النفس بمحبة الله . رأى احد المتوحدين نفسه في الحلم يرنم في حضرة داود بن يسى ، الذي قال له : يا للعجب كيف تعلمت الترنيم ، ولم تتعلم البكاء ؟ ولا يمكن ان يكون البكاء بدون فهم (معنى الترنيم) لذلك فقد قيل :

دع النفس تسبر عميق المعاني

وجانب قليلاً بحور الاغاني (١)

وللسبب نفسه فان بين المتوحدين من يقرأ المزامير كلها مرة واحدة في الاسبوع . ومنهم من يتلونها مرة واحدة شهرياً . واما الضعفاء فلا يقللون الترنيم مدفوعين بروح الفهم الواسع ، بل لتغلب شيطان الكسل عليهم ، وامثال هؤلاء (يخدعون انفسهم) فيظنون انه يكفيهم ان يرنموا المزمور القصير الذي بدؤه « سبحوا الرب يا جميع الشعوب سبحوه يا كل الامم » (٢) (ويبررون موقفهم هذا) بان رب الكرم انما ينظر الى الارادة الصالحة لا الى مقدار الانتاج ، وهو يعطي الاجرة ذاتها للفعلة الذين يستأجرهم في الساعة الحادية عشرة ، وللاولين الذين احتملوا حر النهار كله . ويتوهم عدد من غير المتبحرين من المتوحدين باعتقادهم ان تقديم القرابين على انفراد هو ضرب من ضروب العبادة (الخاصة بالسيرة النسكية) وغاب عن ذهنهم ان عبارات طقس القداس وضعت كلها بصيغة الجمع مثل : « كلما اجتمعتم بأسمي » و « امامك طأطأ عبيدك رؤوسهم » وكثير سواها فلا يصح ان يتلوه الا مجموع من الناس .

---

(١) التعريب نثراً كالتالي : تستدعي الضرورة الاقلال من الترانيم ، لكي تنصرف النفس الى تفهم المعنى جلياً .

(٢) المزمور ١١٧ .

الفصل السادس
الصوم

ان الابخرة المتصاعدة من كثرة الماكولات الدسمة تعمي البصيرة وتصدها عن مشاهدة شيء روحاني ، فبالانقطاع عن (هذه المأكوت) تنجلي مرآة العقل وتصير ملائمة لانعكاس الصور الروحية عليها .

والصوم درجات ثلاث ، فهو عام ، وخاص ، وخاص للغاية . أما الصوم العام ، فهو ان يمتنع الانسان قطعياً عن الاكل والشرب النهار كله كعادة المشارقة ، أو يمسك عن اكل لحوم الحيوانات ومنتجاتها فقط وذلك نهاراً كعادة المغاربة . كما ويأكل المشارقة الحبوب والبقول مساءً . أما المغاربة فانهم يفعلون ذلك نهاراً . وللصوم العام قوانين ، فبعض الناس يعزم على الصوم صباحاً ، لانه قد يمتنع الكثيرون عن الطعام عرضاً فلا يعدون بين الصائمين . (أما الصائم) فيجب ان يحترز من زلق ادخال أي نوع من الاكل والشرب في فمه ، وان لا يستفرغ الا اذا كان مريضاً .

وأما الصوم الخاص فهو صوم المتوحدين ، ويقترن به الانقطاع عن الطعام بصوم الحواس عن الحركات المسببة للأثم . ولهذا الصوم أيضاً قواعد وهي منع العينين عن النظر الفاسد ، وإلجام اللسان من الكلام الباطل ، وإصمام الاذن عن سماع الكلمات الرديئة . أما الصوم الخاص للغاية ، فهو صوم الكاملين الذين يقرنون الصوم عن الطعام وصوم الحواس بصوم النفس عن الافكار الرديئة . والشرط الوحيد لهذا الصوم هو استئصال كل فكر دنيوي من أعماق القلب . ولئن كان بلوغ هذه الدرجة صعباً جداً لتسهلن بالتمرين كما قيل :

والنفس راغبةٌ اذا رغّبتَها واذا تُرَدُّ إلى قليل تقنعُ (١)

جاء في قوانين الرسل الامر التالي : كل من يصوم يوم الاحد أو السبت ماخلا سبت البشارة ، ان كان اكليريكيا يجرد من رتبته ، وقرر اباء مجمع غنغرا ما يلي :

من يصم يوم الاحد اعتقاداً منه ان ذلك يفيده من باب النسك فليحرم أيضاً . لذلك فعلى المتوحد ان يحل صومه ولو بفتات من الخبز يسير في الساعة الثالثة في يومي الاحد والسبت ، وبعد ذلك يتناول طعامه عند المساء « وليفعل هذا لا لان الأكل واجب انما طاعة للوصية » (٢) .

الفصل السابع
عمل اليدين

اثبت العارفون ان عمل اليدين نافع جداً . فعندما استحوذ الملل على الاب انطونيوس ظهر له ملاك جالساً يضفر الخوص ، ونهض الملاك من العمل

---

(١) ذكر هذا البيت في مغني اللبيب ج ١ ص١٤٧ وهو لابي ذؤيب الهذلي أحد الشعراء العرب المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية ثم أدركوا الاسلام ، رأينا انه يلائم البيت السرياني الذي استشهد به الكاتب فادرجناه . أما تعريب البيت السرياني نثراً فهو كالتالي : ان الطبيعة سهلة وقابلة للتغيير ومهما عصيتها فبامكانها ان تتحمل .

(٢) عرّبت هذه العبارة عن طبعة الدولباني

وصلى ، ثم جلس واشتغل ، ثم نهض وصلى ثانية ، وقال لأنطونيوس افعل انت ايضاً هـكذا يا انطونيوس فتحيا . قال الاب اثير للاب انبيسطيون صغر بطنك واكثر من عمل يديك . وقال آخر لا تأخذ من احد حسنة ، بل لتكف يداك حاجتك . اما الجواب لمن يقول انه ينبغي لنا ان لا نشتغل لان الرب قد امرنا ان نتشبه بطيور السماء التي لا تزرع ولا تحصد ، وبمريم التي لم تشتغل وقد فضل عملها على عمل مرتا التي كانت منهمكة بامور كثيرة ، فهو ان هذه الاوامر انما تصلح فقط للكاملين الحائزين على كمال العبادة الروحية ،

واما المتوحد الذي لم يملك ذلك بعد فلا يليق ان يطيل المكوث في الصومعة دون عمل لئلا تسيطر عليه الاهواء والشهوات التي تنتج عن البطالة . فالرسول بولس الطوباوي مثلاً لم يأكل من اهل تسالونيكي خبزاً بالمجّان ، في الوقت الذي كان يحق له ان يعال من الشعب لأنه كان مدبرهم ، اما هو فقد كان يشتغل بنسج الخيام ليلاً ونهاراً لكي لا يثقل على أحد (١) وكذلك كان سائر الرسل يصيدون الاسماك . وكان بعض الاخوة المتوحدين يحصدون مع الفلاحين ، وآخرون ينسجون الزنابيل والحصر .

وعلى المتوحد الا يطري محاسن ما يبيعه ، بل يظهر عيوبه ولا يخفيها . والا يتقاضى عنه ثمناً اكثر مما يستحق ، وعليه ان يبيعه للفقراء والمعوزين .

أما الاكليروس فيسمح لهم بعدم العمل اليدوي . فقد كتب « أو لا تعلمون ان الذين يعملون في الاشياء المقدسة من الهيكل يأكلون ، والذين يلازمون المذبح يشاركون المذبح » (٢) .

---

(١) سفر أعمال الرسل (٢٠ : ٣٤)

(٢) رسالة الرسول بولس الأولى الى أهل كورنثوس (٩ : ١٣) .

وان كان يحق للآباء الروحانيين ان تسد حاجاتهم من ابرشياتهم ، (فاننا نرجّح) أن من الأوفق لهم الا يأخذوا شيئاً من احد . وهنا لا يسع المؤلف الا ان يعترف بذنبه قائلاً :

عجبي يا قومُ أهـدي معشراً ... وابادیهمُ بما لا اعلمُ
اعظ الوعظ وآتي ضده ... ثم امحو ما يخط القلمُ
ارشد الناس الى درب الهدى ... وعن الأثم يدي لا تحجم (١)

الفصل الثامن
الغربة

الغربة نوعان ، جسدية وروحانية ، اما الجسدية فهي انتقال الانسان من من ارض آبائه الى بلد غريب ، واما الروحانية فهي انتقال فكري من عالم الفساد الى ملكوت السموات حيث يقيم الملائكة .

وسحقاً لغربة جسدية ان لم تكن غايتها تجنب خسارة نفسية ، وطلب فائدة روحية . والخسارة النفسية على اربعة انواع ، فالأول الاضطهاد الذي يثار من أجل الايمان (٢) . والثاني شكوك الاخوة .

---

(١) وتعريبها نثراً كالتالي : أأعلم ولا اتعلم ! ؟ ، أاكتب ويدي أمحو ما كتبته ؟ ! أاعظ ولا اتعظ بما اعظ به ؟ أو أرشد وأنا اتغاوى بالخطأ ؟ .

(٢) الغزالي في احياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٠٠ « كمن يُدعَى الى بدعة قهراً »

في حالة عدم تمكن المتشكك المرتاب ان ينقي نيته . والثالث : عندما يحصل المتوحد على الثناء الجزيل ويشتهر في مكان سكناه ، (١) وبهذا الصدد يوصي الاب اوغريس قائلاً : اهرب من صومعتك اذا كانت مطروقة . والرابع : اذا كان الاخ يحارب من رذيلة الزنا في المكان الذي يسكنه (٢).

واما الفائدة الروحانية فأنواعها ثلاثة ، الاول : قدر ضروري من العلم (٣) الثاني زيارة الفضلاء ، والثالث التبرك من الاماكن المقدسة . هذه هي الاسباب الموجبة للغربة . اما الغربة التي لا تكون لسبب من هذه الاسباب ، بل تكون غايتها التنزه ، أو الهرب من ضيق الصومعة ، او من الفقر او من الاهانة التي يلقاها المتوحد في وطنه ، فتعتبر غربته إثماً . والمحرض عليها ابليس المضل ، الذي يوسوس في عقل المتوحد ويجعله يتنقل من مكان الى آخر ، ويظهر له باديء بدء العشرة وكأنها خالية من الهوى ، ثم يوقعه ضحية يد ابالسة الزنا ، أو الغضب ، أو الكآبة او اليأس .

لذلك وجب على من يذهب لزيارة بعض الاباء ان ينهمك بذكر الله طيلة الطريق ، وان يصلي صلواته كلها . وعندما يمر بقرية أو مدينة فليقصد البيعة اولاً (٤) ولا يُقمْ هناك اكثر من ثلاثة ايام . واذا ما وصل صومعة الاب الذي قصد زيارته ، فلا يقرع الباب بل ليجلس حتى يشعر ذلك الاب بوجوده ،

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي ج ٢ ص ٢٠٠ « كمن ابْتُلِي في بلده بجاه »

(٢) فيه ص ٢٠٠ « أو خوفٌ سببُه فتنة »

(٣) فيه ص ٢٠٠ « القسم الاوّل السفر في طلب العلم »

(٤) قال القشيري ص ١٥٣ « سمعت الكتاني وقد قال له بعض الفقراء أوصني قال اجتهد ان تكون كل ليلة ضيف مسجد »

فيدعوه ، حينذاك يتقدم اليه بتواضع ، ويقرئه السلام بدعة ، ويجب الا يتكلم ما لم يُسأل . وبلطف يؤدي جواب السؤال فقط دون زيادة . واذا رغب في شيء فليطلبه بأدب . ويجب الا يمكث عند « الاب » اكثر من يوم واحد ، وان سأله عن حال بلده فليقص عليه اخبار الابرار والفضلاء الموجودين فيه ، ولا يذكر كثرة بساتينه واشجاره وخصب ثماره وفواكهه ، لئلا يُعيّر بمحبة التنزه والشراهة .

ويعتبر العارفون النوع الثالث من فوائد الغربة باطلاً . ويقولون :

ان القوة الالهية الحالة في عظام القديسين تصل الى كل مكان ، لذلك عندما استأذن تلميذ من شيخه للذهاب الى أورشليم ، اجابه : انك تضل ياهذا ، فالجميع يحاولون الصعود الى أورشليم السماوية ، اما انت فالى أورشليم الارضيه . وقد قال السيد المسيح « انه تأتي ساعة ، لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للاب . . . الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي ان يسجدوا » (١) فأمكث اذن في صومعتك ، واجتهد ان ترى في داخلك من هو قريب من كل انسان (٢) .

الفصل التاسع
الأهواء الرديئة

لابد ان نتكلم الآن عن الاهواء الرديئة التي تصيب المتوحد في الصومعة وعليه ان يتخلص منها ، وقد سبق ذكرها في الفصل الاول من الباب الثاني وهي :

---

(١) انجيل يوحنا (٤ : ٢١ و ٢٤)

(٢) المزمور (١٤٥ : ١٨)

الضجر . تحمل الشياطين المتوحد على اتمام الصلوات الفرضية رغماً عنه في ظروف لا يتمكن فيها من انجاز ذلك ، ففي الوقت الذي يكون التعب قد هد حيله ، ينتصب ويرتل فتضيق نفسه بالتعب ذرعاً ويشابه من يستقي ماء ويصبه في زق ممزق .

وكان الأجدر به في حال كهذه ان يعطي نفسه قسطاً من الراحة . ويستعيض عن الاتعاب الجسدية باعمال روحية . لأن كثيرين قد انجزوا اعمالاً (جسدية) عظيمة ولكنهم لم يدركوا (الكمال) في طريق الله لأنهم لم يعملوا تلك الاعمال بالحكمة .

الشراهة : وعلاجها التجويع ، فبه يتنقى العقل ويبلغ الانسان ذروة اللذات الروحية ، فتتضع النفس ، وتخمد الشهوات ، وتخف وطأة التعاس (١) اما تقليل نسبة الطعام فيكون تدريجاً ، أي من كان رغيف واحد يسد رمقه في اليوم الواحد ، فلينقص جزءاً من ستين من الرغيف يومياً ، وهكذا بعد شهر يكتفي بتناول نصف رغيف دون ان يلحقه اي ضرر . فان قوماً من المتوحدين يأكلون رطلاً بابلياً من الخبز يومياً ، وغيرهم ثلثي الرطل وآخرين نصفه . واكثرهم لا يأكلون الا مرة واحدة في اليوم ، وبعضهم يتناولون طعام العشاء فقط وذلك مرة في كل يومين ، وآخرون لا يأكلون الا يوم الاحد . ويمتنع الزهاد عن أكل البيض ، والحليب ، والجبن والسمك . ويتعرض الناسك في هذا المضمار الى تجربتين :

---

(١) قال ابو طالب.(١ : ٩٨) « لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فتفقدوا كثيراً »

الاولى : شهوة الطعام التي قد ترغمه على ان يضحي بنسكه ؛ والثانية شهوة المجد الباطل التي تحرضه ليعلن فضيلته تفاخراً . فاذا قهرته هاتان الشهوتان ، فانه يتناول من الطعام خلسة ما لا يتناوله علناً ، ولا يتماثل للشفاء الا اذا حل نسكه ، وتناول من الطعام ما لا يسد رمقه .

الاغتلام : يحرض شيطان الزنى المتوحد على التطلع على عورته ، ولفظ كلمات الفحشاء ، واستماع جوابها باهتمام . ويوهمه كأنه يتم ذات الفعل (القبيح) فعلاً . فيلمس جسده ويدغدغه وهكذا يتخاذل ويخدع حتى يبلغ الشبق الدنس . ولا يشفى من يصاب بهذا الداء الا بالتجويع المستمر ، وعدم معاشرة النساء والصبيان ورؤيتهم . قال الاب امون : كنت صبياً بعد عندما اتيت الى البرية فطردني الاب فغنوطيس البسيط قائلا : انني لا اسمح لوجه صبي شبيه بوجه المرأة ان يسكن الاسقيط (١) . وقد قال القديس باسيليوس

اذا ادعى امرؤ ان معاشرة النساء لا تضره فهو اما ان يكون ليس برجل واما انه لا يشعر بتأثر من المغريات . ويستثنى من ذلك الكاملون الذين مثلما لا تؤثر فيهم مناظر الكواكب الوهاجة في السماء ، والازهار النضرة في الارض ، كذلك لا يراود قلوبهم فكر اثيم لدى رؤيتهم وجهاً بهياً ، وجمالاً فتاناً . ومن ينل الشفاء من هذا الداء يتأثر أولاً من « اعراض » الحركة الطبيعية

---

(١) الاسقيط : كلمة يونانية « اسقيطيس » بمعنى الناسك أو الراهب ، اطلقت على البرية التي يتنسك بها العباد ، الواقعة في منتصف الطريق تقريباً ما بين القاهرة والاسكندرية في مصر ، من ناحية غرب دلتا النيل ، وتدعى اليوم (وادي النطرون) كما تسمى كنسياً الاسقيط .

والسيلان دون تصورات الجماع . ثم يشعر بالحركة الطبيعية دون التصورات او السيلان ، وعندما يتم شفاؤه تزول « اعراض » الحركة الطبيعية بزوال الافكار الاثيمة .

الغضب : اذا كان خصم الانسان اضعف منه قوة ، يضطرم سعير غضبه ويغلي دم قلبه وتحمر وجنتاه . واذا كان خصمه أشد قوة منه ، يحتقن الدم في كبده ويمتقع وجهه ، ويتحول الغضب الى خوف .

والاسباب المساعدة على الغضب هي الكبرياء والخصام والطمع . ويعالج ذلك كله بقول الرب « تعلموا مني لاني وديع ومتواضع القلب » (١) وبقول الرسول بولس « لا تغرب الشمس على غضبكم » (٢) ويكره الانسان الجنون الارادي الذي ينتج من الغضب ، اذ ان اعضاء جسمه ترتعش ، ولسانه يتلجلج ، وفمه يزبد . واذا لم يتمكن من الانتقام من خصمه يلجأ الى الشتم ، ويؤذي نفسه بنفسه ، ويمزق ثيابه ، ويضرب على الارض ، ويضرب القصعة بالحجر ، ويكسر مائدة الطعام ، ويلعن البهائم وقد يرفسها ان هو ادركها ، ويعض اذنها ، ويجر ذيلها ، واذا ما وبخه أحد على سوء عمله دافع عن نفسه بكبرياء قائلاً : انني لا اتمالك نفسي عندما أرى ما لا يليق ، أو أسمع ما لا ينفع .

الحقد ، ينشأ الحقد من الغضب ، ومتى نما يولد منه بنون ثمانية ، وهي ان يحسد الانسان من حقد عليه ، ويبغضه ، ويفرح لمصائبه ، ويغتابه ، ويسعى في ضرره .

---

(١) انجيل متى (١١ : ٢٩)

(٢) رسالة الرسول بولس الى اهل افسس (٤ : ٢٦)

وازالة ربحه ، ويحتقره ، ويشمت به ، وقد قال أحد الاباء : من كان في قلبه حقد وادعى انه تائب يشبه من يرى نفسه في حلم كأنه يعدو ويظن ذلك حقيقة . ويعالج الحقد باخماد سورة الغضب ، واكرام الخصم ، كما قال اوغريس الكبير : ان يعقوب قد استرضى عيسو بالهدايا ، أما نحن الفقراء فنقضي هذه الحاجة بمائدة بسيطة .

الحسد : لا يحسد المرء الا من كان اكثر منه فضلاً . والحسود الشرير هو من رأى نعمة عند غيره وساءه وجودها لديه ورغب في زوالها عنه . أما اذا كان يشتاق ان تكون له النعمة ذاتها التي عند غيره فهو غابط غيور صالح . فان الحسود هو من يبغض رفيقه ولا يريده ان يكون مشابهاً له أو أعلى منه رتبة ، والذي يتمنى ان تكون نعمة غيره له وحده والذي يرغب ان يكون وحيد دهره بمفرده . ويتلظى بنار الحسد أيضاً الانسان المتمرغ بالشهوات الذي لا يحب العلم ولا الزهد .

فيحزن عندما يرى غيره يتعلم أو يتنسك . ويعالج الحسد بمعرفة الانسان ان الحسد يكون مصدر حزن للحسود وزيادة فرح للمحسود بالنعمة التي قد نالها وحده دون غيره .

اللذات : اذ يتمتع الانسان باللذات في هذه الحياة الفانية تصده عن الاستعداد للحياة الابدية . وتقسم اللذات الى ضرورية ، كالكسوة ، والقوت ، واتخاذ زوجة ، واقتناء دار . والى طبيعية كالاهل والعشيرة . والى حب الامتلاك كالرئاسة والمال ، والعبيد ، والجواري ، والبساتين ، والاراضي . كما قال الأب فومن حتى ان الحكمة غير المقترنة بالاعمال الصالحة تعتبر من جملة اللذات المذكورة أعلاه ، وكذلك التعليم الذي يمارسه المعلمون الذين لا يهمهم أمر خلاص تلاميذهم

بل يقصدون من تعليمهم سلب دراهمهم . والخلاصة كما ان الانسان لا يتمكن من رؤية صورته في الماء الكدر ، هكذا أيضاً ، لا يتمكن العقل ان يرى ذاته متحدة بربه ان لم تتطهر مرآة نفسه من اللذات .

حقاً ان الانسان في هذا العالم ، يشبه امرءاً يرى في حلمه لذة ، وألماً ، وعندما يستيقظ لا يجد من ذلك شيئاً .

الطمع : لو تبين المرء ما ينتج عن الغنى من اضرار ، لما تكالب على جمع المال . واضرار الغنى هي ما يتعرض له جامع المال من غدر السلاطين ، والسراق ، والغزاة ومكائدهم جميعاً . وحسد الاصدقاء ، وما يتأتى من الغنى من الافعال الشريرة ، مثل الشراهة ، والفجور ، والمجد الباطل ، (هذه الرذائل) التي يتولد منها الكذب ، والظلم ، واهمال ممارسة الاعمال الروحية لان محب المال ، كما يقول الكتاب ، لا يستطيع ان يعبد ربين (١) . ومتى استقرأ الانسان علة وجود المادة ، يجيبه الرأي الملائكي قائلاً : لاجل حاجة العيش الماسة ، ويجيبه الرأي الشيطاني ويقول : لاجل التبرج والتنعم : أما الطمع فيعالج بتقليل المصروف ، والاكتفاء بما يرزق به الانسان ، وبمقايسة تنعم الاغنياء الوهمي بكرامة المتجردين العظيمة ، وبتطلع المرء الى من هو ادنى منه ، لا الى من هو أعلى منه .

المجد الباطل : محبة المجد الباطل هي الرغبة في نيل المدح باظهار فضيلة ما ، لذلك يهتم المراؤون باكتسابه بممارسة أعمال النسك الصعبة كذباً .

---

(١) انجيل متى (٦ : ١٤)

وقد لا يهتم قوم منهم بالمديح ، ولكنهم متى مدحوا فرحوا (١) ، ومنهم من اذا ما مدحوا يحزنون (٢) ولكنهم يلزمون جانب الصمت ، ولا يدفعون المديح عنهم ومنهم من يهرب من المكان الذي يمدح فيه . وأما الكاملون فانهم يغتاظون ويخطئون مادحيهم . ومن الناس من اذا أحتقروا يحزنون ، ولكنهم لا يحقدون . ومنهم من يعتبرون الاهانة مجداً . ومنهم من يحبون كل من يعيرهم لانه كشف لهم عيوبهم فصار سبباً لشفائهم ،

وتعالج محبة المجد الباطل بان يمارس الانسان الاعمال التي يُعتبر بممارستها ساذجاً ، وتقلل من كرامته لدى الناس ، وان يكون كالميت ، لا يفرح لمديح ، ولا يحزن لاهانة . وان يعمل (الصلاح) بالخفاء ، ويظهر للناس كواحد منهم كان أحد الفضلاء يقول لمادحه : لو كانت معرفتك بي مثل معرفتي بنفسي لما مدحتني (٣) .

---

(١) جاء في احياء علوم الدين للغزالي ج ٢ ص٢٢٨ « وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله »

(٢) قال ابن عطا الله (١ : ١٠١) « المؤمن اذا مُدح استحيا من الله ان يثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه » .

(٣) جاء في احياء علوم الدين للغزالي ج٣ ص٢٢٩ ما يلي :ـ «خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه ناس فالتفت اليهم فقال : علام تتبعوني فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان » وقال ابن عطا الله « الناس يمدحونك لما يظنونه فيك فكن أنت ذاما لنفسك لما تعلمه منها » .

الرياء : الرياء هو التضليل باخفاء ما قبح من الباطن واعلان الفضائل الظاهرة ، كما يفعل الذين يغلّظون ركبهم متظاهرين بأن ذلك انما حدث من كثرة الركوع . والذين يرقّعون البستهم ، ويتمنطقون بحبل في احقائهم ، ويمزجون بأصواتهم رنة حزن وحسرة . ويصمتون ، في الوقت الذي يفكرون بالشـــر في قلوبهم . ويكثرون لهم المادحين ، ويخدعون البسطاء الذين يقصدونهم للتبرك منهم وللسؤال عن مستقبل ايامهم

اما علة الرياء فهي اما الحصول على الكرامة ، واما ربح المادة . ويعالج برفض الميل الى المدح ، وفرح المتوحد بما يصيبه من التعيير . ويأسه من الفوائد التي تجتنى من الناس . فقد قال الاب دانيال ، تطلعت الى باب صومعة الاب فومن ، فرأيته جالساً على الارض ، ولما رآني نهض حالاً وجلس على الحصير . ويعلن الفضلاء اعمالهم (الحسنة) احياناً ، وذلك عندما يتأكدون بان تلاميذهم سيقتدون بهم ، كما قال الاب مقريس للاب اوغريس : « انني لم اشبع خبزاً ، ولا ماء . ولا نوماً ، مدة عشرين سنة » .

الكبرياء : الانسان بطبيعته ، يرى نفسه أعلى مقاما من سواه فقد تكبر فرعون على الله ، اذ قال ، ان النيل يخصني وانا أوجدته ، وتكبر على عبيد الله مضطهدوهم ، ويتعجرف الجهال عادة على رفاقهم اذ يرون ما لهم من محاسن ، نقصاً في الاخرين .

وعلة الكبرياء هي الافتخار والحقد والحسد ، فهذه (الصفات الرديئة) تمنع الانسان من ان يتضع لرفيقه ، أو يساوي نفسه به . وعـلامات الكبرياء هي محبة التزين ، وركوب المطيّة (للتبرج) ، والرغبة بالتحية في الاسواق ،

والتصدر في مجالس الولائم ، ولا يمشي المتكبر منفرداً . ولا يزور من هو افضل منه ، ويشمئز من المصابين بالجذام والاستسقاء والقروح . ولا يعمل بيده عملاً ما ، ولا يحمل حاجياته بنفسه بل يحملها عنه سواه . اما علاج هذا الداء فقد ذكرناه في فصل التواضع .

الافتخار .

وهو ان يتعجرف المرء (ويشمخ على غيره) بما ناله من نعمة ، أو علم ، أو اعمال صالحة ، أو جمال ، أو غنى ، أو بأس او حسب ونسب ، أو عقيدة يظنها مستقيمة . اما الفرق ما بين الكبرياء والافتخار فهو ان الكبرياء تحصل بمقايسة الانسان ذاته مع غيره ، بينما الافتخار يكون بدون مقايسة .

وكمقارنة الطفل بالرجل كالمقارنة مابين الافتخار والكبرياء . ويعالج الافتخار عندما يعرف الانسان ، ان كل ما (يظن انه) له من كمال انما هو هبة من الرب ، لذلك عليه ان لا يفتخر واذا افتخر ، « فليفتخر بالرب » (١) سمع الاب فومن مرة أحد الاخوة يقول : انني لم ادخل القرية سنين عديدة، فقال له : لو كنت قريباً من القرية لدخلتها ليلاً ، ولدرت فيها لئلا يراودني فكر الافتخار إذ لم ادخلها .

التبكيت واصلاح الآخرين ، وهو من اختصاص الرعاة لا المتوحدين إذ ان واجب هؤلاء ان يهتموا باصلاح ذواتهم . قال الاب فومن اذا رأيت أخاً يقترف الخطيئة لا الومه ، واذا ما لامني ربي اقول له : انت علمتني قائلاً : اخرج أولاً الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيداً ان تخرج القذى من عين اخيك » (٢) .

---

(١) رسالة الرسول بولس الاولى الى اهل كورنثوس (١ : ٣١)

(٢) انجيل متى (٧ : ٥)

الفصل العاشر
السجايا الحميدة

ان الفضائل هي التي تؤهل النفس الناطقة للفرح الروحاني يوم ينفلق الفجر ويشرق الجميل ،

وقد ذكرنا عددها (في الفصل الاول من الباب الثاني) وهي كالتالي :

العلم ، الشغف بمحبة العلم من اقدر الوسائل لأستئصال العادات الرديئة من النفس ، وطالب العلم (الديني) ليبدأ بدراسة سفر المزامير ، ثم ليتدرج فيدرس اسفار العهد القديم . فالعهد الجديد ، ثم يثقف بكتب العلماء الذين قد لخصنا آراءهم في هذا الكتاب . وبذلك يتمرس الطالب على ترتيب حاجات جسده ، فيروضه بتمارين قاسية عنيفة . ويستأصل من اعماق نفسه العيوب الدنسة ، غارساً مكانها العادات الحميدة ، واذا احتاج الى معلم فليكن معلماً صالحاً . ومن علامات هذا ، ألا يكون منقاداً للشهوات (١) ولا محباً لمجالسة الرؤساء ، ولا سريع الجواب . ويعلم باعماله اكثر من اقواله ، ويعلم أولا الامور التي ينبغي تجنبها ، ثم الاعمال التي يجب القيام بها .

الايمان . على حد قول الرسول السعيد بولس هو : الثقة بما يرجى والايقان بأمور لا ترى (٢).

---

(١) قال ابن عطا الله (٢ : ٦٤) « ولابد للمريد في هذه الطريقة من صحبة شيخ محقق مرشد قد فرغ من تهذيب نفسه وتخلصه من هواه فليسلم نفسه اليه . »

(٢) رسالة الرسول بولس الى العبرانيين (١١ : ١)

ومن الواضح ان هذا التحديد يناسب كل ايمان . ومتى اردنا ان نحدد الايمان بصورة خاصة بالنسبة لنا « كمتوحدين » فاننا نقول : ان الايمان هو موافقة النية لتعليم الانجيل ، ويتم ذلك باقرار اللسان وحفظ الوصايا ، وبما ان من يعاصرنا من المسيحيين كافة متفقون على صحة (صورة) الايمان الذي قرر في مجمع نيقية (٣٢٥م) فعلى المتوحد ان يتمسك به وحده ، ويتجنب الجدل في موضوع الطبائع والاقانيم . ان المتوحدين الحقيقيين يتحدثون في (كيفية) السلوك فقط ، ولا يتجادلون في موضوع الايمان ابداً .

الشكر . هو عرفان الجميل على نعمة منحت أو يرتجى تقديمها ، وسبب الشكر معرفة الانسان مقدار هذه النعمة ، ونوعيتها . وعلى قدرها يحمد مقدمها وتكون النعمة اما حقيقية ، واما مجازية . اما الحقيقية : فهي التي تطلب لذاتها ، كالنعيم الابدي في العالم الروحاني ، أو تطلب من أجل غيرها كالمعرفة الحقيقية ، والعمل الصالح اللازمين لأجل النعيم الابدي .

كذلك النعمة المجازية فهي : اما ان تطلب لذاتها كالحياة ، والقوة ، والصحة والجمال ، واما لأجل غيرها كالشرف ، والغنى ، والاقارب ، والخدم ، وكل ذلك ضروري لسنة الحياة . واذ ان عرفان الجميل هو سبب الشكر ، فنكران الجميل هو سبب الجحود (١) ، فالكثيرون الذين لا يقدرون نعمة الهواء مثلاً لا يحمدون الله لأجلها . فاذا ما صد الهواء عنهم ، وكادوا يختنقون ، ثم عاد اليهم ثانية ، يعرفون عظم هذه النعمة ، ويشكرون الله لأجلها . والفضلاء يحمدون الله حتى ابان الشدائد ، لعلمهم ان قد تعرض شدة اعظم من التي

---

(١) قال ابو طالب ١ : ٢٠٨ « وأصل قلة الشكر الجهل بالنعمة » .

نزلت . لذلك يشكرون الله الذي دفـــع عنهم ما كان اعظم ، ويحمدونه ايضاً على ابتلائهم بشدة زائلة وخلاصهم من شدة دائمة .

الرجاء . الرجاء هـو رغبـة النفس لنيل ما هو محبوب لديها ، وبما ان المحبوب الحقيقي هو السرور الدائم ، فعلى الانسان ان يعد وسـائله اولا ، وهي قناعة الرزق ، وزهـد الجسد ، وطهر القلب ، وكرم النفس ، وبعدئذ يتوقعه . ويقوى الرجاء اذا ما افتكر الانسـان وقال ، ان كان الله قد أعدّ خيرات لا تحصى لأجل قـوام الجسـد الذي يفسد ويبلى ، فكيف يمنع خيراته عن النفس التي هي افضل من الجسد ؟

خوف الله . هو حزن القلب لدى معرفته الضيق الآتي ، (١) ومصـــدر الخوف علم الانسان بذنوبه ، وتظهر علاماته في الجسد كامتقاع الوجـه ، والجسم النحيل ، وتتبين علاماته في النفس ، ببغض الخطيئة . والضيق نوعان جســدي ونفسي ، ويحتقر العارفون الخوف من النوع الاول اذ يقولون « لم نأخـذ روح الخوف » (٢) ولهـذا يجب ان لا تجـــزع ولو التصقت السماء بالارض . اما الخـــوف من النوع الثاني من الضيق ، فالعارفون يمدحونه قائلين : ان الذي لا يخاف الله ، يخاف من ظل جسده مرات عديدة . واذا اشتد الخوف في الانسان يحذره حتى من اتيان اعمال كثيرة غير أثيمة .

الفقر . يجل العارفون الفقر المقترن بفضيلة الاحتمال اكـــثر من الغنى مع الرحمة .

---

(١) قال الغزالي في كتاب احياء علوم الدين ج ٤ ص ١٣٤
« اعلم ان الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه » .
(٢) رسالة الرسول بولس الى أهل رومية (٨ : ١٥)

ويقولون : ان درجة المتوحدين لاعظم من درجة صانعي الصدقات ، وهذا القول هو بخلاف رأي أهل الدنيا . فالمسكين الذي يستحق الطوبى التي أعطيت في الانجيل ، هو الذي يحتمل الفقر دون تذمر ، ويكون عزيز النفس غير ملاق ، واذا كان بامكانه ان يسد حاجته دون سؤال فلا يسأل ابداً . وان فضل لديه شيء فليعطه للمحتاجين . ولا يأخذ شيئاً من الظالمين والمتكبرين ، وعندما يرى غيره أشد احتياجاً منه ليفسح له المجال للأخذ أولاً . واذا كان قادراً على العمل فلا يأخذ من أحد شيئاً (١) . ويجب على من يعطي الصدقة ان يقدمها قبل ان يسأله أحد ذلك . وليفعل هذا خفية جهد إمكانه ، اذ يضع ما يتصدق به في يدي أعمى ، أو يلقيه في طريق الفقير ، أو يشده بثوبه . وان تكون الصدقة من الرزق الحلال ، وان يعطي لمن ليس بامكانهم الخروج للتسوّل . والتسوّل خطيئة لان المتسوّل لا يتكل على الله ، بل على البشر ، وغالباً ما يضر الناس .

الاتكال : الاتكال هو تسليم أمر الرزق البشري لتدبير الخالق .

فاتكال الانسان على ربه ، يشبه ، أما اتكال الصبي على وصيه كقول الرسول بولس « ما دام الوارث قاصراً فهو تحت أوصياء ووكلاء الى الوقت المؤجل من أبيه » (٢) أو اتكال الطفل على أمه كقول داود النبي « لانك انت جذبتني من البطن جعلتني مطمئناً على ثدَيْ أمي » (٣) أو كاتكال البهيمة على

---

(١) قال الغزالي في كتاب احياء علوم الدين ج ٤ ص ١٨١ (فان القادر على الكسب وهو بطال ليس له السؤال الا اذا استغرق طلب العلم أوقاته) .

(٢) رسالة الرسول بولس الى أهل غلاطية (٤ : ١ و ٢)

(٣) المزمور (٢٢ : ٩)

صاحبها كقوله « أنا بليد ولا أعرف ، صرت كبهيم عندك » (١) فالنوع الاول من الاتكال ضعيف ، لان الصبي عندما يكبر يميّز ، فلا يتكل على الوصي . والنوع الثاني أقوى من الأول ، لان الطفل لا يعلم انه اذا ما كبر أنه لا يتكل على أمه . وأما النوع الثالث فهو الأقوى : لانه لن يأتي وقت أبداً تتكل فيه البهيمة على ذاتها ، وليس على صاحبها . ويضع الابرار ثقتهم بالرب ابان المصائب التي بامكان الانسان ان يقوى عليها كالمشقات التي قد تكون مصدر شر أحياناً ، أو قد لا تكون ، ولا تكون الحال هكذا بالنسبة الى المصائب التي لا بد ان تقع (نتيجة عمل ما) . ولهذا السبب أمر الله في التوراة قائلاً : « أعمل حائطاً لسطحك » (٢) وفي هذه الاحوال يتكل المختارون فقط على الرب مخلصهم ، وأمثال هؤلاء . دانيال في جب الاسود ، وحانيا ورفيقاه في اتون النار .

نقاء الافكار ، لا تعتبر الافكار طاهرة غير مضطربة ان لم يستكن الانسان الى الله ويتمسك بالامور الالهية ، حتى ان من طهر فكره ، اذا ما افتكر في نقاء التصورات لا يبقى فكره طاهراً . ومما يعتبر من التصورات المكدّرة الرغبة بنعيم الفردوس ، ويقول الاب فومن : ان الذباب لا يقرب القدر وهي تغلي ، هكذا ما دام القلب يضطرم بمحبة الله لا تدنو منه الافكار الاثيمة . وقال أيضاً : هل يقطع الفأس شيئاً دون قاطع ؟ فلا تفسح أنت أيضاً المجال للتصورات فتزول ، وقال أيضاً : تموت الحية والعقرب اختناقاً اذا حبستهما في إناء أحكمت سد فوهته ، كذلك أيضاً اذا نبذت الافكار الاثيمة (وحبستها) في اناء القلب وسددته عليها (تتلاشى حالاً) . سأل أحد الأخوة الأب ارسانيوس قائلاً :

---

(١) المزمور (٧٣ : ٢١)

(٢) سفر التثنية (٢٢ : ٨)

عجبي كيف تسأل الأب مقريس وهو فلاح ساذج وأنت حكيم . فكيف تسأله عن التصورات ؟ فاجاب انني أعرف اداب اليونان والرومان ، ولكن لم اتعلم بعد ألف باء هذا الفلاح الساذج .

ذكر الموت : لا يمكن لمن يتعلم (ويتدرب) على ذكر (ساعة) الموت (الرهيبة) ، ان يتورط بالخطية سريعاً .

قال أحد الآباء : جعلت الموت نصب عيني لما اضع المغزل (لممارسة الغزل كما اني اتصور الموت) قبل ان أرفع المغزل (١) . أما سبب عدم تذكر الانسان ساعة الموت ، فهو تعلقه بحب الحياة الزمنية . لان من أحب أمراً ابغض ما هو ضده ، ولا يرغب التفكير بهذا المُضادّ . ويشفى الانسان من هذا الداء ، عندما يدرك ان حياة الانسان في هذا العالم حلم ، وما أشبه الانسان بالطير يحلق في الفضاء ولا يظهر لطيرانه من اثر . وهو ايضاً كالسفينة تمخر عباب اليم ، دون ان تترك وراءها علامة في الماء ، وهو كذلك مثل طلّ الصباح يجف ضحى ، ويضمحل وهو ايضاً كالزهر اذا ما تفتح سرعان ما يذبل . وبهذه الطريقة ترذل الخطيئة ، وتخمد محبة الحياة الزمنية ، اذ لا يبرح ذكر الموت من ذاكرة الانسان .

---

(١) قال القشيري (ص١٦١) « وقيل للجنيد ان ابا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت فقال : لم يكن بعجيب ان تطير روحه اشتياقاً . » وقال ابن عطا الله (٢ : ٦٦) « وابلغ من هذا كله محبة الموت وكراهة البقاء في الدنيا شوقاً الى لقاء المولى » .

الباب الثالث
راحة الكاملين الروحانية

وفيه عشرة فصول ـ الفصل الاول ـ مبدأ حركات الكمال

بفضل معاناة الزهد الشاقة وبعد اذ يتنقي الجسد ، ويتطهر العقل ، وتغلق كوى الحواس ، ويستنير مخدع القلب ، تظهر الحمامة للعقل ولكنها لا تستمر بل تغدو كالبرق الخاطف ، ثم تحتجب وتكشف له عن جمالها فيتذوق حلاوة ثمرتها فيأسره بهاؤها ، ويفتنه حسنها . ويصبح كل شيء في الوجود وحتى ذاته سراباً (وبحكم العدم) لديه . وتخال النفس انها تفنى ، وهي تضطرم بنار محبتها . فاذا وصلت الى هذا الحد يغرس فيها التواضع الجم . وها هنا ، يعد المتوحد نفسه تراباً ورماداً . فيذرف دموع الفرح والحزن .واما الفرح : فلأجل الموهبة ، اما الحزن فمن الخوف . وبسبب ذلك يجتهد بالترتيل الكثير ، والركوع المستمر . ويلتذ جداً في اطالته الصلاة ، ويخطر بباله ذكر القديسين ، ويجتهد بالاقتداء بهم ، ويهتم براحة المتضايقين ، وخدمة المرضى ، وإذ ان هذه المهام تشغله عن الحديث مع الحمامة ، يعود الى الهدوء والصمت . واذا سئل سؤالا غير ضروري ، لا يجيب عليه ، ويبغض كلام الترابيين ويعتبره كحديث الاعداء .

واذ يفعل هـــذا تزوره الحمامة الفتية التي هي اقدم من الدهور والاجيال ، فان لم يسلمها ذاته برمتها ، ترذله وترتد عنه ، (١) وعلى هـــذه الحال فبالنسبة الى حرارته في عبادة الله ، أو ، وهنه فيها ، يكون تقدمها منه ، أو ابتعادها عنـه . والعلمانيون المولعون بالدنيويات يضربون قصة طبيعية مثلاً يشابه ما نحن بصدده فيقولون :

جاءت لتقنعه بالحب لاهفة « مشياً على الرأس لا ســـعياً على القدم » (٢)

الفصل الثاني
حركات الكمال المتوسطة

بعد حركات الافعال التي يبدأ بها الكمال ، تغير الحمامة تأثيراتها في العقل وتجعله صالحاً لرؤية كل نفس حصلت على تأمل الهي ، وتؤهله لقبول الالهامات فتظهر في العقل أولاً فهم الخلائق وذلك لأنه مثلما بوساطة الشمس المنظورة ، تظهر للعين العناطر المحسوسة ، هكذا بوساطة الحمامـــة العقليـــة تعلن الطبائع الروحية للنفس . ثم يعود العقل الى مخـــدعه ويعرض عن كل ما في السماء والارض ويكلف بهوى الحمامة وحدها .

---

(١) قال ابن عطا الله (٢ : ٦٠) « حقيقة المحبة ان تهب كلك لمن احببته حتى لا يبقى لك منك شيء » .

(٢) تعريبها نثراً : عندما ترى الحبيبة حبيبها قادماً تسرع بالتقـدم اليـه ، مشياً على الرأس لا سعياً على القدم ، مبرهنة له عن صدق حبها .

اما هي فاذ تتأمـــل لهيب محبته ، التي قـد فحصت كما يفحص الذهب بالنار ، تتراءى له عنـــدئذ لا كالبرق الخاطف بل كنجم حجبته السحابة عن الرؤية ، ولاسيما ابان الصلاة حيث يبطل النظر ، وتلتهب النفس ، ويذهـــل العقل ، ويسقط الانسان ارضاً كميت (لا حراك فيه)ثم يستوى قائماً ، ويستعد للرؤية فتنقشع السحابة رويداً رويداً ، وتستنير العين . وفي هـــذا المقام يفتقد الكامل كنائم ، وهو يقظان ويحسب مستيقظاً وهو نائم .

الفصل الثالث
حركات الكمال التامة

اذا ما تعبدت النفس بالخلال المذكورة آنفاً ، وارتاضت عليها واعتادت ، نال العقل دالة كاملة لدى الحمامة فيتأملها بهدوء ويتحدث معها ، ولا يكون ظهورها ايضاً كالبرق الخاطف او كسحابة تظهر غامضة ، ولكنها تحل في القلب كأنه وكر ، وتظهر ذاتها للعقل كما هي . أي انها حياة الوجـــود وعلة العلل وتلهمه اسراراً عجيبة .

وحينئذ يعرف العقل الكلمة الذي كان منذ البدء ، وبيده كان كل شيء ، اعني حكمة الوجـود ، الذي يسجد له سائر ملائكة الله ، الذين هم ارواح خادمة ، ويمجدونه . وعندما يتحقق العقـل من رؤيتهم ، وجمالهم ، وبهجتهم ، يصير مثلهم . واذا طارت الحمامة والملائكة وارواح الابرار في خدمتها ، يرحـل هو ايضاً صحبتهم وفي هنيهة يسيرة يبلغ معهم غمامة النور غـير المقترب منها ، واذ ينساب الى داخلها متستراً بها ، يستحق المنزلة التي كانت لموســـى ولدى

انذهاله ببهاء الرب سيد الكل ، يزداد بهجة ، ولا يستطيع الرجـــوع الى مكانه الاول من موضع اللذة المحرقة ما لم يطلقه سيده من الاتحاد به . وعند عودته يخضب اعضاء جسده بالنار الالهية التي تغلغلت فيه ، ومتى اشتهى الصعود فالجسد ايضاً يختطف معه ، عما قليل ، وبالجهد ينتزعه ويلقي به جانباً ، كشأنه في نعله

الفصـــل الرابع
أتحـــاد العقل

واذا اتحد العقل بالصالح فانه يسمو من مجد الى مجد بوساطة الرب الروح

ولا ينسى كل ما في العالم وحسب ، بل وحتى ذاته . ويتسربل بنور ذلك المكان ، ويرى ذاته انه صورة الله . واذ يعب كؤوساً مترعـة في ذلك المخدع ، يغيب عن حسه ، ويهذي في سكره ويقول : انا والاب واحد ، وأبي فيّ وانا فيه مع اشياء اخرى غـيرها تحرص الحمامة على اخفائها ولأجلها تقول : السر لي ولبني بيتي (١) . ولما وقف السعيد بولس على سر هذه الأمور قال ؛ انه سمع كلمات لا ينطق بها ولا يسوغ لانسان ان يتكلم بها (٢) . وايراثاوس تلميذه أيضاً هكذا سلم الى ديونيسيوس تلميذه قائلاً : متى اتحـــد العقل بالصالح ، فانه يترك اسم

---

(١) قال ابو طالب ، (٢ : ٥٩) : ـ

ومن بعد هـذا ما تـدق صفاته ... وما كتمه احظى لديـه وأعـدل
ألا انّ للرحمن ســـرّا يسره ... الى أهله في السر والستر أجمل

(٢) رسالة الرسول بولس الثانية الى أهل كورنثوس (١٢ : ٢ و ٣)

المحبة والمودة لان المحب الودود يصير هاهنا شخص المحبوب المودود ، وهكذا كل كناية يقصد بها الازدواجية كالابوة والبنوة ، والمجيد والممجد ، لان العقل هناك لا يمجد (بكسر الجيم) بل يمجّد (بفتح الجيم) .

وأورد هذا العلامة براهين من الاجسام على الاتحاد العقلي وقال : كما ان الماء يعد بموجب عدد الاواني التي تسعه ، واشعة الشمس على عـدد الكوى ، والنار بموجب عدد المواد التي تتقد بها ، والهواء على عـدد الازقة التي ينحصر فيها ، واذا ازيلت الاجسام الضابطة لها كلها يصير لكل من الماء والاشعة وبقية الأشياء المذكورة اعلاه ، ماهية واحدة ، هكذا أيضاً العقول عندما تتلاشى الاجساد فانها تصير كلها واحداً . وكما ان للجسد مبدأ من العناصر واليها يرجع ، كذلك أيضـاً العقل حيث ان مبتدأه هو الذات الالهية فالى الذات الالهية نفسها يعود ليكون الله الكل في الكل كما علمنا معلمنا ومرشد طريقنا .

الفصل الخامس
اسباب المحبة

أسباب المحبة خمسة : وهي مكانة الشخص ، وعمل الخير ، والجمال الظاهر ، والجمال الباطن ، والتشابه الخفي . فبالنظر الى جميع هذه الأسباب تُوجَب محبة الله ، ويتضح ذلك من انه اذا كان من طبع الانسان ان يحب ذاته فبالضرورة ان يحب مكوّن هذه الذات ورازقها الذي هو الله .

« لاننا به نحيا ونتحرك ونوجد » (١) وان كان الانسان يحب من أحسن اليه دون انتظار مكافأة ، فكم بالاحرى يجب عليه ان يحب الله المسجود له الذي قد اعدّ له الخيرات التي لا تحصى كشروق الشمس ، وظهور القمر ، والكواكب واعتدال الهواء ، ومياه السحب والينابيع ، والانهار ، وثمار الأرض ، والحيوانات والبهائم ، وغيرها التي لا تحصى . وان كان الانسان يهوى الجمال الظاهر ، فكيف لا يحب من يظهر لانقياء القلوب بثياب تلمع كالثلج ، وشعر كالصوف النقي ، وقد استوى على عرش يلتهب ناراً ، وفوق عجلات متقدة ، وعلى المركبة ذات الوجوه الاربعة . حقاً ان كل من يؤهل ان يراه ، ينبذ كل حب خارجي ، ويتلهف اليه وحده . وان كان الجمال الباطن المقترن بمعرفة الأسرار الخفية ، والبعيد عن أهواء الخطيئة ، والمطابق لأعمال البرارة ، يستحق المحبة ، فمن لايحب مقدس القديسين ، ومطهر الدنسين .

والذي تعتبر معرفة (الخلائق) جهلاً اذا قيست بمعرفته ؟ وان كان التشابه الخفي يُحب فما أشقى الانسان الذي لا يحب ربه الذي خلقه على صورته كمثاله !

الفصل السادس
لذة المعرفة

كما انه بموجب القوة المدركة للاشياء المحسوسة اعني اللمس ، والذوق ، والنظر ، والسمع ، والشم ، يحصل الانسان على لذة خاصة ، هكذا فطنة العقل

---

(١) سفر اعمال الرسل (١٧ : ٢٨)

يكون لها لذة خاصة ، ومن حيث انه لا يوجد بين الروحانيين كافة أعجب ، وأدهش ، واكمل من رب الكائنات والهها فاللذة التي تنتج عن معرفته تفوق كل اللذات (١) ومن لم يذقها لا يشتهيها ، كما ان الأصم لا يشتهي ان يسمع صوت القيثارة إذ لم يسمعه قط ، كذلك فكثيرون لا يشعرون بالضرر الناتج عن جهلهم معرفة الله ، مع ان ذلك يعتبر أكثر إيلاماً من جميع الآلام ، ومثلهم مثل العضو المخدر الذي لا يحس بالنار ، ولا بالبرد القارس . اذن لا يوجد انسان سبي عقله بحب ربه ، وتتمكن شهوة شيء في العالم ان تسبيه

ولا أحد وجد الله ولم ينس العالم باسره (١) .

والعقل ما لم يمتزج بمحبة الرحمن ضلّا
والعبد ما لم يخش بارئَهُ تردّى الرّق غلا (٢)

وهذه اللذة تحدث بعدما ينفصل العقل عن العناصر انفصالاً تاماً كما قال

---

(١) قال الغزالي في كتاب احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٢

« ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلذة العلم بالله وصفاته وملائكته وملكوت السموات والارض فلا ينبغي ان تشك في ان الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الالهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات والذّها وأطيبها » .

(١) قال الغزالي في كتابه احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٦٤

« ولهذا قال أبو سليمان الداراني ان لله عبادا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله » .

(٢) تعريبه نثراً : فالعقل الذي يُلهّف نفسه بحب ربه لا يضطرب أبداً ، ومن يتعبد للرب ، خلع ثوب العبيد حالاً .

بولس الرسول السعيد : « فاننا ننظر الآن في مرآة ، في لغز ، لكن حينئذ وجهاً لوجهٍ » (١) . ويقول القديس غريغوريوس : ان النفس الصالحة المحبة لله عندما تنطلق من جسدها تتمتع بلذة عجيبة وتبتهج إذ ان (الجسد) الذي كان مظلماً صار نقياً .

الفصل السابع
ونمو المحبة لله

تنمو محبة الله في النفس ، اذا تدرب الانسان بالايمان ، والرجاء ، والمحبة ، وتقوى بالزهد ، وأخذ يلهج باعمال الخالق العجيبة ، ويرى ببصيرته القوة الالهية المحيطة بالكل ودون حاجز يجتاز حدود الدنيا كلها وخارج حدودها .

وفوق سائر السموات والبحار والأعماق وكل ما فيها ولا يرتبط العقل بشيء منها ، حتى ولا يمكث في ظلام الهيولى ، بل يبغض كل شهوة ، ويطلب الصالح وحده ويرغب فيه ، منقيا نية قلبه من كل ما سواه ، لكي يرى - ولو بغموض - شيئاً من أشعة الازلية ، وفي هذه النظرة الخاطفة من شرارة الحب اليسيرة ، تتكون شعلة عظيمة تلهب النفس فيتلهف محب الله لرؤية ربه وينتظر بشوق مجيئه ليرى وجهه ، ولا يقدر ان يفصله عن محبة ربه ، لا موت ولا حياة ، ولا الأشياء الحاضرة ، ولا المستقبلة ، ولا خليقة أخرى . ويتمم ارادته ، ولا تفتأ شفتاه عن ذكر اسمه . ويتعزى بالسكون والعزلة في كوخ ضيق ، ويتلذذ باعمال الزهد ، ويصير رحيماً على الصالحين والطالحين ، ويصلي باستمرار كي لا تبرد محبته وجهد امكانه يستر هذه المحبة ، ولا يحب أحداً سواه . قيل ان المصرية التي أحبت يوسف عندما مات زوجها آمنت بالله . فأراد يوسف ان

---

(١) رسالة الرسول بولس الأولى الى أهل كورنثوس (١٣ : ١٢) .

يتزوجها فرفضت ، وقالت انني أحببته قبل ان أعرف ربه ، والآن وقد عرفت ربه ، فاياه (وحده) أحببت لاعبده .

الفصل الثامن
معرفة الله

ان معرفة العارف بوجود الخالق من وجود المخلوقات ، طريق سالكة مهدها الكثيرون باتعاب ، أما المختارون ، الذين سبق الله فدعاهم ليكونوا مختارين وقديسين . فانهم من الخالق يعرفون المخلوقات (١) ، كما قال بعضهم : أما انا فبمعرفة الهي عرفت العالم وذاتي . والمرتل الالهي قد عرّف المعرفة الاولى بقوله : « السموات تخبر بمجد الله » (٢) وعن المعرفة الثانية أشار بقوله : « بنورك نرى نوراً » (٣) والحكماء الوثنيون أيضاً يفضلون المعرفة الثانية على الاولى . ولان معرفة الله هي سبب محبته ، فاناس لا يعرفونه كما هو ، ولذلك لا أساس لمحبتهم أياه . وغيرهم يعترفون به كما هو ولكن عن طريق التقليد والسمع .

---

(١) الغزالي في كتابه احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧١ يشرح هذين النوعين من المعرفة قائلاً : « والواصلون الى هذه الرتبة ينقسمون الى الاقوياء ويكون أول معرفتهم لله ثم به يعرفون غيره والى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالافعال ثم يترقون منها الى الفاعل » وقال ابو طالب (٢ : ٣) « هناك حقت عبادته وخلص توحيده فعرف الخلق من معرفة خالقه » .

(٢) المزمور (١٩ : ١)

(٣) المزمور (٣٦ : ٩)

ولو ان لمحبة هؤلاء أساساً غير انه موضوع على الرمل ويتزعزع ابان بعض من الشدة ، وأما العارفون فانهم يعرفون آلوهيته المعرفة الصحيحة ، وأساس محبتهم وضع على الصخرة ، ولن تقوى عليه الشدائـــد ، والاضـطهادات ، والسيف ، والنار ، ومع ان جميع الكائنات التي في السماء وعلى الأرض تشير الى وجود الخالق (١) و « لا قولَ ولا كلامَ لا يُسمع صوتهم » (٢) فكثيرون لا يعرفونه لا لاحتجابه بل من كثرة ظهوره ، يغشى على العقل بنوره غير المحسوس (٣) لان العقل البشري بالنسبة الى النور الازلي ، هو مثل الخفاش بالنسبة الى نور الشمس ، اذا فكما لو كان للخفاش قوة البصر التي للانسان ، كان يمكنه ان يتطلع الى نور الشمس . هكذا العقل البشري ، فانه لو حصل على قوة عقل الملائكة كان بامكانه ان يرى النور الازلي (٤) .

---

(١) قال الغزالي في كتابه احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٧٥ : « ووجود الله وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسماء وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض » .

(٢) المزمور (١٩ : ٣)

(٣) قال ابن عطا الله (٢ : ٩) « انما احتجب لشدّة ظهوره وخفي عن الابصار لعظم نوره » .

(٤) قال الغزالي في كتابه احياء علوم الدين ج ٤ « كما ان الخفاش يبصر بالليل ـ ولا يبصر بالنهار لا لخفاء النهار واستتاره لكن لشدة ظهوره ، فان بصر الخفاش ضعيف يبهره نور الشمس اذا اشرقت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره سبباً لامتناع ابصاره فلا يرى شيئاً الا اذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة » .

الفصل التاسع
التغيرات التي تحدث للكاملين

منذ بدء بلوغ الكاملين درجة الكمال وحتى انفكاك قيودهم ، يحدث لهم ، على الاغلب ، اثنا عشر تغييراً : ـ

التغيير الاول ، غوص العقل بالقلب : هاهنا يتوقف الفكر ولا يتحرك ولا يتلفظ اللسان بالحمد . ولا يحتمل الانسان سماع حفيف ورقة ، ويستولي السكون على حركات النفس والجسد .

التغيير الثاني الفهم : فيه يعرف العقل عظم درجته ، وان أصله هو من الله ، وهاهنا أيضاً يلزم الصمت والسكون ، وان غلبه التيه ، فبقراءة الكتب ، والركوع تجمع (شتات العقل) .

التغيير الثالث ، محبة الترتيل : من حيث ان الكامل عند لفظه كل جملة يتبدل من حالة الى أخرى ، وطبيعياً تتأصل الفاظ المزامير في ذاكرته ، حتى اذا صمت ، يسمع وكأنه المرتل الالهي يرنم في اذنيه ، عازفاً على القيثارة ، ثم تمحى الكلمات من الاذن وتبقى المعاني في الذهن .

التغيير الرابع تفجر الدموع : ويحدث هذا لا قهراً ولا ارادياً ، انما تسجر نار المحب القلب فتهطل الدموع من العينين .

التغيير الخامس ، معرفة الدينونة : هاهنا تتولد الشفقة في النفس .

وتنظر الى الناس سواسية ، ولا يوجد هاهنا بار أو خاطيء ، عبد او حر ، ختان أو غرلة ، ذكر أو انثى ، بل تطلب الرحمة عوض الكل ولأجل الكل .

التغيير السادس ، استنارة العقل : بالاشعه الملائكية المركبة من النور والنار ، ويتقد (الانسان) غيرة وحباً ليتحد بافواجهم ، وليضم الى جوقتهم .

التغيير السابع ، استماع تقاديس السرافيم ، التي لا تتكوّن بالنطق المفسر بل ترسم بالفاظ عقلية .

التغيير الثامن ، المشابهة ، عندما يستضيء العقل بالنور غير الموصوف ويتغير الى مثاله ، كالسحابة اللطيفة والشفافة ، التي تكون مماثلة لشكل الشمس اذ يكون موقعها قريباً منها .

التغيير التاسع ، الاستنارة ، صيرورة الانسان شبه نار متقدة ، وذلك اذ يصير الجسد كله بلون النار ، كما كان يرى الأب ارسانيوس وهو واقف في صومعته يصلي .

التغيير العاشر ، الاتحاد ، ويدعوه العارفون بالشيء الذي لا يمكن كتابته ، وبه تُمحى الاعداد ، وها هنا يزول الضعف البشري ، وتبطل الصلاة والطلبة ، ولا يبقى ذكر للامور الحاضرة والمستقبلة ، إذ ان العقل يصير حينئذ كقابل الصلوات كافة ، لا مصلياً وكمجيب الطلبات لا طالباً .

التغيير الحادي عشر ، الفرح غير المعروف سببه ، إذ يعرف العقل حينئذ انه جذلان ، ولكنه لا يعرف سبباً لفرحه .

التغيير الثاني عشر ، طلاقة في الكلام ، وتفسير الأسرار ، وكشف المستقبلات ، المدونه في بدء الكتاب الذي هو سفر معرفة الله .

الفصل العاشر
سقوط الكاملين

عند بلوغ درجة الكمال ، ولئن يتقدس الجسد ويتنقى القلب ويستنير العقل ، فان لم يحترس الرجل الكامل من الفخاخ التي ينصبها له ابليس ، فانه يسقط من

شاهق ارتفاعه حالاً ، كما سقط الشيطان أيضاً . وتسرق الافكار الشريرة الانسان الكامل كالآتي : عندما ينعم عليه بالاكتشافات العجيبه ، فانه يبتهج في نفسه ، ويتوق ان يُعلن المواهب التي استحقها ، والتي لم ترها عين ، ولم تسمع بها اذن ، لذلك يحرص بان يمضي الى المدن والقرى .

كمرشد ومخلص النفوس ، ولبنيان الكثيرين الذين سيكون لهم قدرة فيتشبهون به ، ويُخيَّل له كأن الشياطين يتذمرون منه ويشتكون قائلين : آه ما لنا ولك يا عبد الله أتيت هاهنا لتعذبنا ؟ ! . ويرى أيضاً كما في الخيال اناساً ينالون الشفاء وجمهوراً غفيراً يتزاحمون ليدنوا من ثيابه ، وعلى الباب يقف الذين يطلبونه ، وان لم ينطلق معهم يذهبون به مكبلاً بالقيود . وهكذا عندما يخدع بافكار كهذه ، يرتد الى العالم ، وان رأى حينئذ زميلاً له أبرع منه كلاماً ويُرَغِّب الناس في العلم الذي عنده يحسده ، ويبغضه ، كما حدث لهرون الاسكندري ذي السيرة الرفيعة ، الذي كان يأكل مرة واحدة في كل ثلاثة أيام ، لما سقط بخطيئة الافتخار ، أظلم عقله وابتدأ يحقّر الأب اوغريس قائلاً : من يقبل تعليمك ، يضل ضلالاً ، لانه لا حاجة له الى معلم آخر سوى المسيح الذي قال : « لا تدعوا لكم معلماً على الأرض » (١) ثم اغراه الشيطان ليمضي الى الاسكندرية .

ولما ذهب تمرغ في حمأة الزنى ، وقطع عضو تذكيره ، إذ فسد ولما تعافى بقى بدونه ، وعاد الى رشده ثانية . لذلك فالانسان وان بلغ درجة الكمال ، عليه دائماً ان يطلب من ربه قائلاً : « لا تطرحني من قدام وجهك وروحك القدوس لا تنزعه مني » (٢) .

---

(١) انجيل متى (٢٣ : ١٠)

(٢) المزمور (٥١ : ١١)

الباب الرابع
قصة تدرج المؤلف بالعلوم
تليها أقوال الهامية

شغفت منذ نعومة اظفاري بمحبة العلم . فتفهمت الكتاب المقدس وتفاسيره الضرورية ، وادركت على يـــد معلم متبحر ، الاسرار المكنونة في كتب الملافنة القديسين . ولما بلغت العشرين من عمري ، اضطرني البطريرك المعاصر الى ان أتقلّد رئاسة الكهنوت ، حينئذ الجأتني الضرورة ان اجادل ذوي المعتقدات المخالفة من مسيحيين وغرباء ، مجادلات مبنية على القياس المنطقي ، والاعتراضات ، وبعد دراستي هذا الموضوع مـدة كافية وتأملي فيه ملياً تأكد لديّ ان خصام المسيحيين بعضهم مع بعض لا يستند الى حقيقة .

بل الى الفاظ واصطلاحات فقط ، إذ ان جميعهم يؤمنون بان سيدنا المسيح هو اله تام ، وانسان تام ، بدون اختلاط الطبيعتين ، ولا امتزاجهما ، ولا بلبلتهما اما نوع الاتحاد ، فهذا يدعوه طبيعة ، وذاك يسميه اقنوماً ، والآخر فرصوفا . (شخصاً) . واذ رأيت الشعوب المسيحية كافة رغم اختلافاتها ظاهرياً ، متفقة اتفاقاً لا يشوبه تغيير (أو شكٌّ) ، لذلك استأصلتُ البغْضة من اعماق قلبي ، وأهملت الجدال العقائدي مع الناس واجتهدت على ان ادرك فحوى حكمة اليونان ، أعني المنطق ، والطبيعيات ، والالهيات والحســـاب ، والاداب ، وعلم الفلك ، وحركات الكواكب . واذ ان الحياة قصيرة والعلوم واسعة لذلك فقد انتقيت ما هو ضروري من كل من هذه العلوم وتناولته درساً وتمحيصاً .

ومثلي بدراسة هذه العلوم ، مثل من كان غارقاً في البحر ، وهو يمد يده الى كل ناحية لعله ينجو . واذ لم أجد ضالتي المنشودة بالعلوم الخاصة والعامة كافة ،

فقد أوشكتُ ان اهلك هلاكاً تاماً ، حيث اصطادتني فخاخ هذه العلوم وكأنها قد رصدتني ، وانني أمسكت عن ذكر ذلك وايضاحه لئلا يضر بكثير من الضعفاء ، والخلاصة انه لو لم يعضد الرب ضعف ايماني في الازمنة الخطرة ، ولو لم يرشدني الى التأمل في كتب العلماء ، كالاب اوغريس وغيره ، من المغاربة والمشارقة ، وينتشلني من هوة الهلاك والدمار ، لكنت قد يئست من الحياة الروحية لا الجسدية . فقد درست تلك الكتب غضون سبع سنين ، ابغضت خلالها بقية العلوم التي كنت قد درست أغلبها ، لا لذاتي بل لاجل الذين كانوا يرغبون في الاستفادة مني ، بغير ما أناة ، وفي هذه الفترة أيضاً أعيتني بل أشقتني الشكوك والعثرات العديدة ، فكنت أسقط في هوة الكفر تارة ، وانادي : كفى هؤلاء النساك جعجعة ! الا ترى رحاهم خالية من القمح ؟ ! .

ألا ان كلامهم مشحون بتصورات سخيفة لا حقيقة لها ، وكان ضميري يؤنبني أحياناً وهو يخاطبني بقوله : لا تهذِ ولا تظن ان كل ما لا تعرفه ليس بموجود ، لان ما تعرفه هو أقل بكثير مما لا تعرفه . وكنت بشكوكي هذه أعرّج على الجانبين ، حتى أشرقت عليّ كالبرق أشعة نور خاطف لا يوصف ، فتناثر جزء من القشور التي كانت متلبدة على عينيّ فانفتحتا ، وأبصرت قليلاً ، واذ كنتُ أصلي بلا فتور ، ليتداعى كلياً السياج القائم في الوسط لارى المحبوب غير المنظور ، لا بالظلام بل علناً .

وهذه الاقوال المختصرة التي اسوقها هنا الآن ، إن هي الا جزء من ذلك الشعاع البرقي الذي ظهر في ظلمة الليل :

١ ـ لا تتبحر النفس الطاهرة في المعارف ، لأجل المجد الذي يناله العلماء في هذا العالم بل يتزايد شوقها الى رب الكل ، فتتمكن من الدخول في السحابة الالهية والاحتجاب بها .

٢ ـ ضل الذين يهتمون بالتبحر بدراسة العلوم المسيحية والوثنية ولا يهتمون بتطهير ضميرهم ، ويظنون انهم قد بلغوا درجة الكمال فما الفائدة من اتقان صنع المرآة المرصعة بالجواهر والحجارة الكريمة ، إنْ لم تكن مجلوّة عن الصدأ ؟ والمرآة المصقولة ولئن كانت بسيطة في صنعها ، فانها تفي بالحاجة التي صنعت لأجلها.

٣ ـ من تعلم عن طريق السماع كيفية تشييد البيت الذي بناه سليمان ، كيف يماثل من دخل ذلك البيت وشاهده بأم عينه ، وأحصى طبقاته ، وكواه المفتوحة والموصدة ، وأروقته وجدرانه ، وأجنحة كروبييه ونقوش أعتابه .

٤ ـ يهتم كثير من الملافنة والاباء بجمع المال وبسائر الملذات (وهم يبررون أنفسهم) بقولهم اننا انما نعد علفاً للبهيمة ، أعني قوتاً للجسد ، الذي هو مطية النفس ، (انهم ليتوهمون باعتقادهم) ان ذلك لا يضر أمثالهم مثلما لا يضر الأصحاء طعام المريض ، وبالحقيقة قد اشتدت عليهم الحمى ، وساء مزاجهم ، واضطرب نبضهم ، حتى غدوا بمرضهم لا يشعرون .

٥ ـ ضل من ظن ان اختلاف ألوان قوس قزح انما يرجع الى تعـدد ألوان أشعة الشمس ، (وبالحقيقة) انها ترجع الى تعدد أجزاء السحب بالكثافة والرقة والتلبّد والوضوح .

٦ ـ اخطأ الظن من حسب ان الشمس تشرق على الاجساد المظلمة فتنيرها طمعاً بنيل المجد ، والمدح ، والتعظيم ، والتبجيل ، والحقيقة هي ان المُنار (بضم الميم) يقتني المجد ، والمدح ، والجمال والعظمة ، بالمنير ، وليس هـذا ـ المنير ـ بالمُنار

٧ ـ كما ان الجائع لا يشبع بالماء ، والعطشان لا يرتوي بالخبز ، كذلك

العارف الذي يرغب ان يرنو الى باطن السحابة السيناثية لا يلذه خبر الكتب الا قليلاً .

٨ ـ ان معرفة الله بالنسبة الى معرفتنا كقوته بالنسبة الى قوتنا .

٩ ـ ان الله هو ضابط الكل فكيف يحصره العقل ؟

بينما الشيء القابل للحصر (ذاته) لا يمكنه ان يضبط الا جزءاً من الحاصر لا كله ،

١٠ ـ مادمت تروم ان تعرف الله بوساطة الأدلة والبراهين والشهادات ، فأنت تضرب على حديد بارد (١) ، وليس فيك بعد من الايمان بقدر حبة خردل

١١ ـ تحصل رؤية الله باغماض الحواس ، وفتح كوى القلب ، وكشف الحجاب عن أعين الضمير ، وهذا هو ماقيل عنه « سد النوافذ ليستنير المنزل » .

١٢ ـ الذين يدخلون السحابة ، يدركون عمق الله وغناه وحكمته ، بدون وساطة التصورات وعرقلتها .

١٣ ـ كما يدرك العقل ههنا المباديء الأولى ضرورة (كمعرفته) ان الكل هو أكبر من الجزء ، وان الواحد هو نصف الاثنين ، كذلك عندما يلج السحابة الالهية يدرك ضرورة أحكام الله الخفية وغير المدركة .

١٤ ـ كما ان الحواس لا تستطيع ان تدرك الصور المجردة عن المادة كذلك العقل ما لم يخلع حذاء الجسد عن رجليه ، لا يستطيع ان يدرك الصور المحتجبة في السحابة ، ولئن (استطاع) ادراكها بغموض وبشكل غير واضح .

---

(١) نجد التعبير نفسه لدى ابي طالب (١ : ١٠٠) حيث يقول (فكيف تنال من الآخرة وقد اعرضت عنها وصرفت عنها فما أراك تضرب إلا في حديد بارد) .

١٥ ـ يحصل العقل ، في داخـــل السحابة ، برؤية الجميل ، على لذة لا توصف ، وقد يحصل على هـــذه اللذة خارجاً عن السحابة ، ولكنها تكون لذة السامع عن جمال الجميل لا الناظر اليه .

١٦ عندما تتفتح عينا العقل ، بحسب قابليته ، تفيض عليه النعمة ، فيستضيء بالأشعة الملائكية الساطعة ، ويستأنس بأهل الملكوت ، وينضم الى أجواقهم السعيدة ، ويبتهج ويمجد معهم ، ويصير غريباً عن العالم وكل ما فيه .

١٧ ـ من لم يرنُ الى داخل باب قدس أقداس السحابة يته في مَهْمَهِ (١) الضلال اذ يعد نفسه بين المؤمنين ، ولئن اعترف بلسانه وآمن بقلبه .

١٨ ـ ان المولود الاعمى ، ولئن صدّق بوجود الألوان : الأبيض ، الأسود ، والأخضر ، والاحمر . والمولود الأصم ولئن صدق ان الاذن تلتذ بسماع الانغام الموسيقية والألحان المنظومة ، ولكن تصديقهما هو الى عدم الايمان أقرب منه الى الايمان

١٩ ـ ان كنت لا تملك أيها الأخ ، الايمان بالوحي ، فلا تعط لعينيك سنة ، ولا لجفنيك نوماً ، حتى تجد مقاماً للرب (٢) . ومن هناك تنال الايمان ، وتعتمد بالنار والروح لا بالماء .

٢٠ ـ يعطى الايمان بالوحي للانبياء ، والرسل ، بوساطة الاشراق من العلى ، دون مشقة أو تعب ، وأما النساك (فلا ينالونه) الا بعد طلب ، وعناء ، وانسحاق ، وزهد . وبهذه الوسيلة يرتقون من ايمان الخيال ، الى ايمان الالهام .

٢١ ـ احترس ، لعلك بالقراءة السريعة ، وبمواظبتك على العمـل تتمكن

---

(١) المهمه وجمعها مهامه وهي المجاهل .

(٢) المزمور (١٣٢ : ٤ و ٥)

من دفع ذاتك بسمة أهل الملكوت ، لان كثيرين تعبوا كثيراً ، واذ لم يكن ذلك بتعقل ، لم يدركوا طريق الحق ، ولم يصلوا ميناء الحياة .

٢٢ ـ لا يُقتنى الكمال بالاتعاب الجسدية فحسب ، وانما باجتهاد الضمير السليم وجهاده أيضاً فاقرن اذن عملك الجسدي بتمييزك الروحاني ، لكي تعرف العبادة بالجسد والنية معاً .

٢٣ ـ هذه هي المحبة ، طلب المحب للمحبوب ، وهذا هو الطلب الحقيقي أن يوجه الطالب كل نظره الى المطلوب .

حينئذ يصير الطلب والفوز به توأمين متفقين . أعني يحصل الفوز بعد الطلب حالاً . ومن يطلب هكذا يجد ، ومن يسأل بهذه الوسيلة ينل .

٢٤ ـ كما ان الحديد الخالص تجذبه المغناطيس بسهولة ، ولكن اذا ما اختلط بعنصر آخر ، تضعف فيه قوة الجاذبية ، هكذا أيضاً العقل النقي ، تجذبه برمته الذات الألهية السامية ، ولكن إن كانت رغبات الجسد ملتصقة به ، أبطلت قابلية الانجذاب فيه .

٢٥ ـ كما ان تنقية الحديد من العناصر الغريبة عنه مثل الذهب والفضة ، والنحاس والقصدير ، هو أصعب من عتقه من الايدي المستولية عليه ، ومن سائر المعطلات الخارجية غير المختلطة بجوهره ، كذلك الحال في تطهير العقل من العادلت البهيمية ، والأهواء الحيوانية المتأصلة في طبيعته ، إذ تكون أصعب من انقاذه من شراك المرأة ، والبنين والاملاء ، والوزنات .

٢٦ ـ عندما يدرك العقل ان هنالك كلمات ليس بامكانه ان ينطق بها ، وأموراً لم ترها عين ، ولا سمعت بها اذن ، ولا خطرت على قلب بشر ، عندئذ يرتفع فوق سائر الدرجات التي هي خارج السحابة الروحية ، ويضع قدمه على عتبة الدرجة السفلى فيها .

٢٧ ـ عندما يؤهل العقل لسماع أقوال فائقة الوصف ، يعجز الانسان عن تفسيرها ، ورؤية أمور لم تر مثلها عين ، يكون قد سكن في مسكن الرب وحلّ في جبله المقدس (١) ، منذ أمد بعيد .

٢٨ ـ تعلن الكنيسة مجاهرة : ان الواحد بثلاثة وأن الثلاثة بواحد ، ولكن ليس بنوع يكون فيه الواحد اذ هو واحداً ثلاثة ، أو الثلاثة إذ هي ثلاثة واحد ، لأن هذا محال .

٢٩ ـ ان للثلاثي بذاته معنىً وحيداً ربّانياً ، بتوحيد الذات غير قابل الانقسام الى ثوالث متعددة . وبهذا المعنى هو واحد وبما ان للفريد العلي ذاتاً ، وكلمة ، وحياة ، ثلاثة ، فهو اذن واحد بالطبيعة ، بثلاثة اقانيم .

٣٠ ـ يستحيل أن تكون علة كلمة الذات الالهية ، وحياتها ، شيئاً آخر سوى الذات الالهية نفسها ، والا تكون قد صنعت من آخر ، وهذا الأمر محال للذات الالهية ، لذلك دعا علم اللاهوت العلة الأب ، أما الكلمة والحياة المعلولان ، فالابن والروح .

٣١ ـ عندما تكون الكلمة خفية في ذهن الناطق ، فمثل أعلانها مثل ظهور الطفل من الرحم بالولادة .

وأما الحياة فانها معلنة في الحي ما دام حياً ، وهكذا فالابن مولود وليس هو منبثق وليس والروح منبثق وليس هو مولوداً .

٣٢ ـ طالما يخلق الله خالق كل شيء اختيارياً . فاعلانه للمخلوقات ممكن بوساطة أي كان من الأجسام .

---

(١) المزمور (١٥ : ١)

٣٣ ـ اذا ما سلّمنا بحقيقة ظهور الله لموسى بالعوسجة في جبل سيناء ، واعطائه اياه الشرائع والاحكام الملائمة لبني اسرائيل ، فكيف ينكر ظهوره تعالى للعالم بانسان تام ذي نفس ناطقة عاقلة ؟ .

٣٤ ـ من لم يكن مصدر وجوده من ذاته ، بل من علته يستحيل ان يكون سبباً لوجود موجود آخر . ولكن ربما يكون وسيطاً ، إذن فالله وحده علة كل العلل ، وهو خالق الكل في الكل .

٣٥ ـ بما ان القمر يستمد نوره من الشمس ، وان نور القمر يضيء الأرض ليلاً ، فكيف اذن يكون القمر الذي لا نور له بذاته ، علة إنارة الأرض فليس هو علة ولكنه وسيط بين العلة والمعلول .

٣٦ ـ كما ان المرآة خاليةٌ بذاتها من كل صورة وشكل . وبقدر صفاتها وصقلها تظهر فيها بوضوح الصور الخارجة عنها ، كذلك العقل أيضاً وهو خال من التصورات ، وبحسب نقائه من الادناس الهيولية ، تتصور فيه الأشكال الروحية .

٣٧ ـ ان مقايسة المملكتين السماوية والأرضية بملك الملوك ، واله الالهة ، ورب الأرباب ، هي كمقايسة صور الأجسام الظاهرة بالمرآة ، بالأجسام الحقيقية الخارجة عنها ،

٣٨ ـ كما انه لا وجود حقيقي ذاتي للصور التي تظهر في المرآة ، وانما وجودها تابع لوجود الاجسام الاصيلة خارج المرآة ، كذلك ليس للمملكتين الروحانية والجسمانية وجود حقيقي بذاتهما ، ولكن وجودهما يتبع علتهما الأولى أي الذات الالهية (١) .

---

(١) قال ابو طالب (٢ : ١٤) (ألا كل شيء ما خلا الله باطل .)

٣٩ ـ بما ان وجود الحق الأول لا يحصر بزمان ، لذلك لا يصح ان يقال عنه انه قد كان حيث لم يكن معه شيء ، أو سيكون حيث لا يكون معه شيء ، واذا قيل قول كهذا فيكون مصدره ذهناً غير خبير .

٤٠ ـ من لا يزال يرضع الحليب كطفل لا يستطيع تناول الطعام المعدّ لكاملي السن ، ومن كانت قوة بصره كقوة بصر الخفاش ، لا يتمكن ان يتطلع الى نور الشمس .

بل عليه ان يترك الفصل السابق دون ان يجزم برفضه أو قبوله ، أو ان يخزنه في ذهنه الى ان يتم ملء زمانه .

٤١ ـ عندما تنفتح نافذة قلبك ، فانك تحلق طائراً نحو ملكوت الله ، وهناك ترى علانية جميع هذه الأمور ، ولا تحتاج بعدئذ ان تسمع بحديثها ، ولا تكون عندئذ غير مؤمن بل مؤمنا .

٤٢ ـ بحسب تقلبات مواقع القمر بالنسبة الى الشمس ، يختلف اشراقه ، وبحسب ثبات الموقع يدوم لمعان النور في القمر ، ومتى زال هذا يزول ذلك أيضاً

٤٣ ـ كما ان موقع القمر بالنسبة الى الشمس لا يستمر على حال واحدة ، بل في كل فترة يتغير فيصير موقعه في غير ما كان عليه سابقاً . كذلك العقل ، بموجب التغييرات التي تطرأ عليه ، تزداد استنارته أو تقل . (١)

٤٤ ـ ان كانت الكائنات تتغير بجواهرها في العالمين ، فالعقل ما دام مهتما بالمادة ، تكثر تغييراته ، بحسب كثرة إتباعه الأهواء ، واذا ما تحرر من هذا

---

(١) قال ابن عطا الله (١ : ١٠٤) : ـ « ربما وقفت القلوب مع الأنوار كما حجبت النفوس بكثائف الاغيار » .

القيد ، نقصت تغيراته ولا تقل استنارته من شمس البر العظيم ، بل بالاحرى انها تزداد .

٤٥ ـ ان الوجود الذي ظهر قبل الزمن للسماء والأرض وما فيهما ، هو غير هذا الوجود المنظور الآن . وهذا الوجود الحاضر أيضاً هو غـــير الوجود المنتظر ان يكونَ في المستقبل ، لان الأول قد زال ، وهذا الحاضر قد تجدد ، وأما المستقبل المنتظر فسوف يتجدد (١) .

٤٦ ـ اخطأ من ظن ان الجواهر المحدودة جميعها بسبب مشاكلتها بعضها لبعض بالنوع تكون واحـدة بالاقنوم ، مثـل من يرى يوحنا ، ثم يعقوب ويظن ان يعقوب هـذا هو يوحنا الذي رآه أولاً لاشتراكهما في أوجـه الشبه بالطبيعة البشرية .

٤٧ ـ اذا رأى الاغبياء شعاع المصباح متساوياً ، ظنوا ان مـاهية الشعاع واحدة من بدئها حتى نهايتها ، أما من كان عقله كاملاً فيعلم انه بقدر نقصان الزيت تتلاشى الماهية ، وبقدر جذب كل جزء من فتيلته تتجدد الماهية .

٤٨ ـ يصعب على العقل كثيراً تصوّر زوال الذوات وتجديدها ، وبعد الدرس الغزير ، والتدريب المتقن .

لا يكاد يقدر ان يدرك هذا ، ومع كل ذلك يكون ادراكه مبهماً ، أما العارفون فانهم ينظرونه واضحاً باكتشافاتهم المجيدة ، وباشراق يعرفون ان في طور من الزمن يخلق الباري ذاتاً جديدة لـكل مخلوق .

---

(١) قال ابن عطا الله (١ : ٣٢) « كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان » .

٤٩ ـ ان الذين يشاهدون بعيني الروح زوال الذوات وتجديدها ، يعلنون جهراً قائلين : واحد هو الله خالق الكل ، الذي به الكل ، وبه أيضاً نحيا ونتحرك ، وبه نوجد ، وفي يده قوام العقل والنفس وحركتهما وحياتهما ، وبيده الطبائع كافة .

٥٠ ـ ان معرفة الكاملين هي معرفة إيحائية ، وكل معرفة إيحائية تعتبر معرفة نبوية .

٥١ ـ ان معرفة الكاملين هي معرفة نبوية ، ولا تكتسب المعرفة النبوية ، بل ولا يتعلمها الانسان من مطالعة الكتب .

٥٢ ـ يكون الانسان الحاصل على الايحاءات أحياناً ألكن ، وأحياناً خطيباً فصيح الكلام ، كل ذلك بحسب ما يطرأ عليه من تغييرات .

٥٣ ـ من لم يذق حلاوة محبة سيده ، لا يتمكن من معرفة قوة كلمات المحبوب ، لانها رمزية إذ لا ينطق بكلمات الروح الا برموز سرية .

٥٤ ـ من يكتب أسرار الروح دون أن يملي عليه الروح ذلك ، فهو نحاس يطن ، أو صنج يرن ، لان الروح لم يمزج حلاوته بكلامه .

٥٥ من يتعلم أسرار الروح من الروح ذاته ، يلتذ سامعوه بكلامه ، وتستأصل كلمتهَ شأفة سائر الأهواء من قلوبهم .

٥٦ ـ حَسبُ الطالب ـ الذي يرغب ان يقرع باب الملكوت ـ جزء يسير من كلام العارفين ، ليتبين علائم الطريق . وليكثر من التأمل فيه ، ويضاعف اللهجَ به ، ولا يضيّع ايامه سدىً فيخسر وقته في مطالعة الكتب المسهبة بتعليمها والمطنبة بمبناها .

٥٧ ـ من يأخذ جزءاً يسيراً من تعاليم الكاملين ، اذا ما عثر على أحد

العارفين فليسترشد بكلام فمه على معرفة الطريق ، والا فلينقِ حدقة عينه الداخلية بالنسك ، فترى سائر الطرق سهلة ممهدة .

٥٨ ـ حتى متى تفتش عن دليل ليفتح في جدار قلبك نافذة تجاه الملكوت ؟ ! نقِ مرآة عقلك من الادناس فتُريَكَ أشكال المملكتين والسبل المؤدية الى السماء وهي أيضاً توصلك الى الله .

٥٩ ـ طالما لا يتمكن العطشان من الذهاب الى ينبوع الماء ، لا يستطيع المرشد ان يوصله اليه ، أو يحمله الى هناك . بل يريه كيفية الرحيل ونوع السلوك فقط .

٦٠ ـ كما ان السفينة المثقوبة لا تنفعها الريح مهما كانت هذه الريح ملائمة ، هكذا القلب الذي تدخله الشهوات لا يجديه الدليل نفعاً ، مهما كان هذا من ذوي الدرجات السامقة .

٦١ ـ ان الجرة التي رأسها مائل نحو الأرض لا يمكن ان يخزن فيها ماء . والنفس المتجهة بافكارها نحو الدنيويات ، لن تثبت الموهبة السماوية فيها .

٦٢ ـ ان من يرغب التشبه بانقياء القلوب ، ينفعه كثيراً الانهماك بخدمتهم . وأنقياء القلوب هؤلاء ، هم الذين طهروا إنسانهم الباطني من كل اثم ، ونالوا سائر المواهب الصالحة والتامة النازلة من فوق من عند أبي الأنوار .

٦٣ ـ انه لسعيد ومستحق الطوبى ذلك الذي قد عثر على خبير اشرق شعاع شمسه على قبس مصباحه ، وتلاشى نوره بنور ربه ، ومات عن العالم ليحيا بالهه .

٦٤ ـ ان الحياة الحقيقية هي التي يرضع الكاملون لبنها من ثدي العناية (الالهية) جل شأنها مباشرة ، وليس لمعلمي الناموس ، ولا لكتبهم ، فيها سوى الاسم والصورة .

٦٥ ـ لولا ان الرب أعانني ، وردني من ضلال مختلف العلوم ، وانواع الفنون ، في تلك السنين السبع ، الى التأمل في كتب العارفين ، لتلبستني العادات الرديئة ، تلك التي اراها تلازم الكثيرين .

٦٦ ـ لعلك تسأل ، هل هنالك علامة فارقة تميز ما بين العارف الحقيقي من المرائي المضل ؟ أجبك قائلاً : نعم ان العلامات كثيرة ، ولكنها تبدو بادىء بدء غامضة ، ومع مرور الزمن تبدو أخيراً ظاهرة للنظر .

٦٧ ـ من لم يذق شيئاً لا يعرف طعمه ، ومن لم يأكل شيئاً ، لا يشبع بمجرد حديث يصدر عن الآكل منه ، ومن لم يشرب ماء ، لا يرتوي بمجرد حديث عابر يلقيه من شربه . ومن لا يدخل التجربة لا تجدِه تجربة غيره نفعاً .

٦٨ ـ يرفض بعض المعلمين المتبحرين بعلوم الكتاب المقدس وتفسيره ، ان يتعلموا السير في طريق الملكوت على يد عارفين غير متضلعين بفنونهم ، بيد أن هؤلاء المعلمين لا يسلّمون ، ولا يفقهون ، كون معرفتهم ، وان كانوا متظلعين بها إن هي الا معرفة نقلية ، وأما معرفة العارفين ، وان كانوا بسطاء ، فهي معرفة اختبارية .

٦٩ ـ أيها العلماء الافاضل ، أقسم لكم بسيدي رب الارباب ، انكم ان لم ترجعوا وتصيروا كالاطفال مجردين عن كل دهاء وحيلة ، فانكم لن تعرفوا حتى الاتجاه الصحيح للملكوت ، فكيف إذن تسعون الى الرحيل في سبيله ، وترومون التقدم نحوه ؟ . سيحدث لكم والحالة هذه انكم ستبتعدون عنه ، في الوقت الذي تظنون انكم قد وصلتم اليه .

٧٠ ـ اننا نعرف جوهر الجسد معرفة بسيطة ، وذلك عن طريق معرفة النفس الناطقة ، وحركتها للجسد مطيتها ، وهذان الأمران موجودان في الحيوانات

غير الناطقه ايضاً . اما خلود النفس بعد فناء الجسد مطيتها فيثبته الفلاسفة بدقة علمهم من عدم هيولية النفس (١).

٧١ ـ النفس الناطقة قابلة لأكتساب العلوم الهيولية ، وليس لجسم هيولي قابلية لأكتساب ذلك ، لان العلوم الهيولية لا تتجزأ وكل جسم هيولي يتجزأ ، ومن المحال ان يحل غير المتجزيء بالاجسام المتجزئة .

٧٢ ـ لا نفس ناطقة هيوليـــة ، وكل ما هو قابل للفساد هيولي ، فمن الضروري ان يكون فيه شيء كعنصر يفسد ، وشيء كالمادة يقبل فساد عنصره .

٧٣ ـ ان نستدل على وجود الخالق من مخلوقاته ، كما نستدل على وجود البنّاء من البنيان ، معرفة عامة وساذجة نجدها لدى عامة الناس ايضاً . واما في تعاليم الفلاسفة الدقيقة ، فتوجد معرفة خاصة عن طريقها يستدلون على وجود واجب الوجود من الوجود ، وذلك ان كان الموجود واجب الوجود فهـــذا هو المقصود وان كان ممكن الوجود ، فهو مفتقر الى من هو واجب الوجود ، اذن لابد من وجود من هو واجب الوجود .

٧٤ ـ لدى العلماء معرفة اخـــرى افضل يحصـــل عليها بنقاء الافكار ، واضعاف الجسد ، واغلاق نوافـــذ الحواس ، وتحطيم القيود . فاذا ما استنار مخدع قلبهم بهذه المعرفة ، يتصور ملكوت الله فيه ، ويكون هـــذا الملكوت داخلهم ، وحينئذ لا يحتاجون الى ان يطلبوه في « هذا الجبل ، أو في اورشليم » .

---

(١) كل العناصر الجوهرية لهذه العبارة متضمنة في العبارة الاولى من هذا الباب ، وهي تلخيص لمبدأ ارسطوطاليس في النفس وهو : ان النفس ليست بجرم وانها لا تموت ولا تفسد ولا تفنى ... فصارت في هـــذا البدن الغليظ السائل الواقع تحت الكون والفساد .

٧٥ ـ العقل الذي يضطرم بمحبة سيده ، اذ آزاه (١) سرعان ماتنجذب اليه الاشعة ومتى اضيء توهّج في طرفة عين كالمصباح الذي يستنير من المصباح المضاء وهو يطفأ .

٧٦ ـ فوق ، وتحت ، وامام ، ووراء ، كل هذه الظروف من خواص الاجسام ، (التي تشغل حيزاً من الفراغ ، وتقع تحت احدى الحواس) ، وليست هذه الظروف من خواص الارواح (المجردة التي لاتشغل حيزاً ولاتقع تحت الحواس ،) ولكن اذقصرت الاسماء وسائر الكلمات (عن التعبير) لجأ المتكلم الى استعمالها مجازاً (اضطراراً) .

٧٧ ـ من يهتد بنور سراجه يتمكن من الطواف في حندس (٢) الليل البهيم (٣) ، ويسير في الظلام وهو لا يعلم الى اين يمضي ومن أخفى نور شمسه ضياء سراجه ، فهو سائر في النهار ولا يعثر .

٧٨ ـ ما اسرع زوال الزمن ، وأخف اوان هذا النور . ما اقصر نهاره ، وأقل ساعاته . وندر من يستحقه من الناس . اما انا ففي غمرة ظلمتي أبصرته حول القطب كالشمس ابان السحر ، وكالبرق الخاطف .

٧٩ ـ ان شمسي لا تزال مثلي في برج الجدي ، وان كانت بعيدة عن الجدي نحو الجنوب . وحتى الآن لم تبلغ بدرجاتها قطبي ، فكم انا تائق مشتاق الى ان تشرق عليّ وتنفحني ولو نزراً يسيراً من نور الجميل الحقيقي لكي لا اسجد بعد الآن لمن لا اعرفه بل اسجد بالروح والحق لمن اعرفه (٤) .

---

(١) آزاه حاذاه وداناه .

(٢) حندس الليل : ظلامه

(٣) البهيم : الاسود المظلم ، وليل بهيم لغة لا ضوء فيه حتى الصباح

(٤) قول المؤلف هذا تضمين لقول السيد المسيح للمرأة السامرية : « انتم تسجدون لما لستم تعلمون ، اما نحن فنسجد لما نعلم » (يو ٤ : ٢٢ـ٢٤)

٨٠ ـ حدثني أحد العارفين الطوباويين قال : عندما كنت مبتدئاً تراءى أمامي النور الذي يستحيل الدنو اليه ، فارتعشتْ مفاصلي ، وسـها عني العقل ، وبت اشابه من ركب فحلاً هائجاً يجري باقصى طاقته ، ولا يعلم (راكبه) ما اذا كان يطير في الفضاءُ بالجسد ، أم انه يحلق دونه . ولكن متى هـدأ الفحل من هيجانه ، رجع اليَّ عقلي ، وثاب اليَّ رشدي ، وأخـذ لساني يلجلج ويقول : لقد صار ما صار ، ولا اقول ما صار ، أما أنتَ فانصت اليَّ ولا تنبس ببنت شفة ، ولا تسألني تفسيراً وايضاحاً (وكفى) ! ! (١) .

٨١ ـ وحدثني هذا العارف نفسه أيضاً قائلاً : عندما اشتد حبلي ازداد ، في داخلي لهيب محبتي لسيدي . المحبة التي كم من مرة حالت دون اتمام خدمتي ، انما كنت أسقط على وجهي أرضاً ، واشابه الأموات ، ويكاد جسدي يحترق وتنهداتي تتزايد ، وقلبي يناجيني قائلاً : وحتامَ هذا البكاء . ومجاهـدة النفس حتّامَهْ ؟ ! وماذا ينفع ذكر المحبوب اذا كان المحب حبيس قفص الفراق ؟ .

٨٢ ـ وقال أيضاً : لما بلغتُ أشُدّي . خرج أمر من الملك العظيم الذي سلطانه خالدٌ ، وملكه لا يزول الى دهر الدهور ، أصدر أمره واذن لي بالدخول اليه ، وحالاً كسّر العقل ، الشبيه بالنسر ، القفص كالمعتوه ، وحلّق الى عشه القديم . ووقف امام ملك الملوك ، واله الالهة . ورب الأرباب ، وحظي لديه بدالة تامة .

٨٣ ـ أحذر لئلا يُضلك صباك ، فتظن ان بامكانك ان تفهم هذه المعاني

---

(١) هذه العبارات ذكرها الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) ص ٤٢ حيث يقول :

وكان ما كان مما لستُ اذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

بهذه الكلمات ، لا يا أخي ، ان كنت تهتم بالاطلاع على الأسرار الخفية ، أبغض العالمين « ودع الموتى يدفنون موتاهم » (١) ، وأطلب الحي السرمدي وحده ، واذا ما تعبت في طلبه الى الأبد فستحيا الى أبد الابدين .

٨٤ ـ الادنياء يرغبون في هذا العالم ، والفضلاء يطلبون العالم الآتي ، أما الأعلون فيطلبون ربهم نفسه ، لا بغية منفعة لهم ، أعني يبتغونه حباً به ، لا بخيراته ، ولن يفصلهم عن حبه شيءٌ ، لا الامور الحاضرة ، ولا المستقبلة ، ولا خليقة أخرى (٢) ، وكلما ازداد هيامهم بجماله ازداد تلهفهم اليه .

٨٥ ـ تطلب النفس النقية مكانها الأول ، وترجع اليه في الطريق القُربى المستقيمة . أما سر اجتياز الصدّيقين جسر النار ، فذلك لان للنار خاصيةٌ هي ان تشب الى فوق عمودياً دون ما اعوجاجٍ .

٨٦ ـ العقل غير المعيب ، عندما يسير في الطريق ، يرتل قائلاً : أرني طريقك لاسلك فيها ، وفي سبلك أحيني ، وحين يصل الى نهاية الطريق يطلب من ربه قائلاً : احفظني كحدقة العين وبظل جناحيك استرني ، أمام الاشداء باجسامهم والخطاة الذين نهبوني ومن الشهوات الرديئة عدوة نفسي التي اكتنفتني (٣) .

٨٧ ـ تكون رؤية العين أحياناً صحيحة ، مثلما ترى البحر أعظم من الغدير ، واحياناً خاطئة مخدوعة مثلما ترى الشمس كالتُرس والنجم كالدرهم وذلك لان العين لا تتمكن من رؤية الأشياء البعيدة بوضوح كرؤيتها الاشياء القريبة .

---

(١) انجيل متى (٨ : ٢٢)

(٢) رسالة الرسول بولس الى أهل رومية (٨ : ٣٨)

(٣) تضمين المزمور (١٤٣ : ٨ ـ ١٢)

٨٨ ـ كذلك معرفة العقل تكون أحياناً صحيحة ، كمعرفته ان الله واحد ، وهو واجب الوجود ، وخالق أزلي ، وتكون أحياناً خاطئة مثال ذلك القول الذي نصه : ان العقل عندما يتحرر من عبودية الجسد يرى الله العلي المسجود له كما هو .

٨٩ ـ كما ان الخفاش لا يرى الشمس أبداً ، أما الانسان وان شـاهد نورها بحسّه البصريّ ، فلا يراها كما هي ، وهكذا أيضاً المتأمل في الالهيات ، إنما يسمع عن العلي سـمعاً ، ولكنه لا يراه والعارف يرى جزءاً من أمجـاد العلي غير المحدودة لا كلها .

٩٠ ـ تعوّد ان تصـدّق كل ما تسمعه من انسان صادق بكلامه ، ولا تبحث عن أصل الكلام بالمقايسة ، وان كنت لا تعرف حقيقته . وبهـذا الأمر يكون الايمان صالحاً (لانه يبطل فعل) السموم ، وذلك بوساطة الفارقليط روح الحق الذي يحل عليك ، ويرشدك الى الحق ، ويذكرك بكل الأمور ويعلمك أياها .

٩١ ـ تصـير قيامة الاجساد باتحادها ثانية بالارواح ، وتصير قيامة النفس بتحررها من اتحادها بالجسد . وهذه الاخيرة مثل الأولى أيضاً حيث تحدث بعد ضيق كثير ، فالشمس والقمر يظلمان بمثابة العينين والكواكب تتساقط من السماء أي الحواس من الرأس ، وتضطرب القوى المحركة للجسد .

وتنوح جميع القبائل أي أعضاء الجسد ، والنفس الطاهرة التي نهضت من سقطتها تهتدي بنور علامة ابن الله الى المخدع الموعود به لها في السماء .

٩٢ ـ يعرف اختلاف نفوس الفرس والثور والقرد والانسان من اختلاف اجسادها ، ويعلم العارف المنزل الذي تستحقـه كل نفس بشرية وذلك من حركاتها ، ويميّز بين من يكون منزلها في قدس الاقداس الداخلي ، وبين من يكون مخدعها بعيداً عن السحابة ، ويعرف التي ستكون في الوسط أو في المؤخرة . والتي

ستكون حقيرة وعديمة النور كلياً ، في الاماكن التي لا يفتقدها الرب مع المرذولين تشقى .

٩٣ ـ بعد جهد النفس والجسد معاً ، اذا نلت البساطة الغريزية كما نالها سمعان ، أو حتى شبه الغريزية ، فاعلم ان قد مضى ليلك ، وانتهى نحيبك ، وجاء أوان السحر ، ودنا صباحك ، فيرسل اليك ربك نوراً وايماناً ، ويعزيك بظهوراته .

٩٤ ـ في كل ما ذكرته سابقاً واذكره الآن وساذكره فيما بعد : لا أحتقر المعرفة العقلية .

وكيف أقدم على هـــذا (الامر المنكر) وأنا أرى الملافنة المسيحيين ، والفلاسفة الوثنيين ، بقيودهم العقلية توصلوا الى ذروة العلوم العجيبة ولكنني عندما أرى بعضهم يزنون كل شيء بميزانهم ، لا يروق لي افتخارهم . وان ميزانهم ـ ولئن كانت ميزان عدل واستقامة ـ لا تسع أكثر أخبار العالم الآتي ، ولا تحيط علماً بتلك الأخبار التي ربما يرى جزء منها بعين الوحي .

٩٥ ـ اذا ما أرحت عقلك من درس الابحاث العويصة المقترنة بالتعقيدات القياسية ، والتزمت حياة الهدوء والصمت مع ممارسة أعمال الاستقامة . فاصطبر ولا تمل (الدأب) في سيرك ، لعل شمسك تشرق ، ومساءك يضيء ، ويكشف لك عن جمالك ويحررك من عبودية الزمان والمكان .

٩٦ ـ عندما تشرق شمس المحبوب على المحب في يوم لا يمكن وصفه ، فيرى العروس السليمانية (١) بجلال تظهر سافرة وتُدخل محبها الى خدرها ذي

---

(١) العروس بمثابة الكنيسة ، والفكرة مستمدة من سفر نشيد الانشاد أحد اسفار العهد القديم ، وحيث ان كاتب هـــذه السفر هو سليمان لذلك سميت الكنيسة العروس السليمانية . أما عريسها فهو المسيح ، ومحبته لها رمز الى محبته لشعبه .

الاعمدة السبعة معلنة اياه محبوب الجميع ، جاعلة الجوارح والوحوش داجنة اذ تستنشق منه رائحة خالقها ، وحتى العناصر العديمة الحس تحس به أيضاً ، والابالسة تطيعه ، والملائكة تخدمه (١) .

٩٧ ـ اذا ما وصل الانسان المغبوط الى هذا الميلاء ، لا يشرب فيما بعد من ماء يجري من صخرة ، أو من بئر ، بل من الماء الذي يعطيه اياه الرب ، ولا يعطش ابداً ، بل يجري من بطنه معين مياه تنبع لحياة ابدية .

٩٨ ـ هذه الفصول انما تفيد من كان خبيراً بمعرفة الامور الالهية والبشرية معاً ، وهو يتوق أن يرى عن طريق الاعلانات ، كل ما فهمه بالعلم ولكن من ليس له هذه الرغبة فليضاعف دراسته لهذا الكتاب لا بالقراءة المضطربة (المشوشة) بل عن ادراك وانتباه .

٩٩ ـ ان الاسباب التي تضعف محبة الجميل ، كثيرا جداً . وأن قوتي لا تقيّض لي ، ووقتي لا يسعني ، لأعددها جميعاً ، لأن كثرة الكلام ، قد اضعفني من مدة طويلة ، ومال قلبيّ الى ما يعود عليّ بالخير ، فمن اشتطاع ان يثبت في ميدان جهاد المحبة ، فليثبت ، ومن لا يتمكن من ذلك ، فليصنع طعامه بحسب طاقته ، وليمد رجله على قدر بساطه .

---

(١) هذا يضاهي ماذكره ابن عطا الله (٢ : ٦٨) حيث يقول : « انت مع الاكوان ما لم تشهد المكوّن فاذا شهدته كانت الاكوان معك . » ويتابع قوله : « وعن المزين الكبير قال كنت مع ابراهيم الخوّاص في بعض أسفاره فاذا عقرب تسعى على فخذه فقمت لأقتلها فمنعني وقال ، دعها كل شيء مفتقر الينا ولسنا مفتقرين الى شيء » .

١٠٠ ـ هذا الزرع اليسير وان كان صغيراً مثل حبة الخردل فانه سينمو ويصير مثل شجرة عظيمة اذا لم يقع على قارعة الطريق ، او على صخر ، أو بين الشوك ، بل سقط في الارض الجيدة ، ومتى نما ستأتي طيور السماء التي ترمز الى الاجناد السماوية ، وتعشش في اغصانها ، ومع هذا كله فلا يستطيع احد ان يأخذ شيئاً من عندياته ما لم يُعط له من السماء (١)

---

(١) تضمين لمثلي حبة الخردل والزارع والزرع (انظر انجيل متى ١٣ : ١ ـ ٣٣)

(٢) انجيل يوحنا (٣ : ٢٧)

فهرست الكتاب

الصفحة

حياة مؤلف الكتاب العلامة ابن العبري		٩
تمهيد		٤٩
المقدمة	المقتبسة عن ونسنك	٥٣
مقدمة الكتاب		٨٧
الباب الاول	العمل الجسدي في دار المبتدئين	٩٠
الفصل الاول	ابتعاد الانسان عن العالم	٩٠
الفصل الثاني	التوبة	٩١
الفصل الثالث	الزهد	٩٢
الفصل الرابع	التواضع	٩٣
الفصل الخامس	الصبر	٩٤
الفصل السادس	محبة الاخوة	٩٥
الفصل السابع	عثرات اللسان	٩٦
الفصل الثامن	ارتداد المبتدىء	١٠٢
الفصل التاسع	تقويم سيرة المبتدي	١٠٣
الفصل العاشر	علامات الاستقامة	١٠٥

الصفحة

الباب الثاني	إتمام السيرة الروحية في الصومعة	١٠٦
الفصل الاول	واجبات الصومعة	١٠٦
الفصل الثاني	العزلة	١٠٧
الفصل الثالث	النسك بانواعه الاربعة	١٠٩
الفصل الرابع	الصلاة وتقسيم اوقاتها	١١١
الفصل الخامس	الترتيل والسهر	١١٣
الفصل السادس	الصوم	١١٥
الفصل السابع	عمل اليدين	١١٦
الفصل الثامن	الغربة	١١٧
الفصل التاسع	الاهواء الرديئة	١٢٠
الفصل العاشر	السجايا الحميدة	١٢٩

الباب الثالث	راحة الكاملين الروحانية	١٣٥
الفصل الاول	مبدأ حركات الكمال	١٣٥
الفصل الثاني	حركات الكمال المتوسطة	١٣٦
الفصل الثالث	حركات الكمال التامة	١٣٧
الفصل الرابع	اتحاد العقل	١٣٨
الفصل الخامس	اسباب المحبة	١٣٩
الفصل السادس	لذة المعرفة	١٤٠

الفصل السابع	إنماء المحبة لله	١٤٢
الفصل الثامن	معرفة الله	١٤٣
الفصل التاسع	التغييرات التي تحدث للكاملين	١٤٥
الفصل العاشر	سقوط الكاملين	١٤٦
الباب الرابع	قصة تدرج المؤلف بالعلوم تليها اقوال الهامية	١٤٨

SYRIAC ACADEMY PUBLICATIONS
BAGHDAD - IRAQ

BAR HEBRAEUS'S

BOOK OF THE DOVE

TRANSLATED

FROM SYRIAC INTO ARABIC

BY

ZAKKA IWAS

SYRIAN ORTHODOX PATRIARCH OF ANTIOCH

AND ALL THE EAST

AND VICE - PRESIDENT OF THE SYRIAC ACADEMY

SAEH Bookstore

TRIPOLI - LEBANON